نشر هذا الكتاب
بدعم من



وزارة الثقافة والاتصال

شيماء أبجاو

المرأة الأخرى

رواية

الكتاب : المرأة الأخرى (رواية).
المؤلف : شيماء أبجاو.
لوحة الغلاف : سعيد موزون.
الناشر : الراصد الوطني للنشر والقراءة.
الهاتف : 0662.86.53.58.
المطبعة : سليكي أخوين – طنجة.

الطبعة : الأولى – مارس 2019.
الإيداع القانوني :
الترقيم الدولي :

”لا تذهب حيث يأخذك الطريق.
بل اذهب حيث لا يوجد طريق، واصنع أثرا“

رالف والدو إمرسون

تقديم

-1-

((كأية أنثى في عمر الزهور تتطلع للانعتاق من زنازين السّطوة، وتتوق لتُشرع صدرها لرياح الحياة ونسماتها النديّة، وتفتح جنّات قلبها وبساتينها لمن يستحق أن يحمل قلبها بين يديه أمانة غالية، كذلك فعلت. لكن بساتيني الخضراء استحالت فلوات مقفرة، تنعق بها رياح الخيبة، وتنتشر على أراضيها الجرداء آمالي النافقة، فكيف لهذه الأرض التي تتوق لرشفة تبل بها جوفها القائظ أن ترفض غيمة جاءت تراودها ببراءة وتناشدها الحب والأمان والعطاء!

دقت طبول قلبي واختلج بعنف وهو يهمس لي: آن لك أن تذوقي طعم البسمة، آن لورودك أن تتفتح وتونع بعبق الحياة.

لكن شمس الحقيقة الملتهبة، أبت إلا أن تحرق كل قطرة أمل تطلع لها قلبي الظمآن.

قرأت مرة في كتاب: "الإرادة الحرة لعنة كل الخطايا" فإن كان وجودي خطيئة واستسلامي خطيئة، فانبعاثي هو التكفير والتطهير.

أنظر إلى الوراء فأراني طفلة بلهاء تفتح فمها بابتسامة عريضة بلهاء، بينما تلوكها أنياب الأيام بلا رحمة. لكني كسرت الصخر، وقهرت القهر، وجمعت الصخور التي رماني بها الدهر، لأرتقي، لأصير امرأة أخرى...))

كانت هذه الكلمات مخطوطةً في أوراق مخبأة في ملف وجدته صدفة مدفونا بعناية في قبو منزلنا. شعرت بالحرارة تجتاح جسدي، وبالأسئلة تنهمر تباعا فوق رأسي!

لمن هذه الأوراق؟ ومن هي "المرأة الأخرى" وما الذي جعل هذه الأوراق تخبأ بعناية وحرص في هذا القبو المظلم؟

شعرت بغصة، واختلطت عليّ الأفكار، وأنا أحاول أن أنكر أن هذا الخط هو خطها! إنها أمي، أمي المرأة الهادئة كصفحة ماء صافية.

اخترت التريث وقررت ألا أصدر حكما حتى أقرأ جميع الأوراق، وأقطع الشك باليقين.

من حسن حظي أن أمي لم تعرف أني زرت ذلك القبو المنسي. وما إن عادت من عملها، حتى أخبرتها إنني أنوي العودة إلى الحي الجامعي.

استغربت أمي من قراري المفاجئ، خاصة وأن الحيّ في هذه الفترة شبه خال من الطلبة. لكنني كنت مصرة على الذهاب، فأنا في أمس الحاجة إلى أن أختلي بهذه الأوراق، التي تَعِد بزلزلة كياني الذي طالما كان مستقرا هادئا.

وصلت إلى الحي الجامعي، وقد كان مقفرا مخيفا، تبدو أروقته الخالية كتلك التي تعوّدتُ رؤيتها في أفلام الأشباح والقتلة المهووسين. لكن الأوراق التي أحتضنها، تبدو لي أكثر إخافة.

أمسكتها بين يدي ونبضات قلبي تتسارع، وكأني أخشى أن أكتشف شيئا يهدم صورة أمي المثالية، والأدهى سينبث صورة امرأة أخرى غريبة عنّي، أتقنت فن التمثيل طوال هذه السنوات.

رن الهاتف، إنه رقم أمي. أجبت على مضض:

- مرحبا.

- انتظرت اتصالك حبيبتي، كيف كانت رحلتك؟

- بخير، أنا في الحيّ.

- هل أنت مريضة؟ صوتك شاحب.

- إنه التعب، سأنام قليلا.

- نوما هنيئا أميرتي.

- شكرا.

أنهيت المكالمة، وانقضضت على الأوراق، بدأت أقلبها فوجدت أنها مرتبة ترتيبا زمنيا، فكل ورقة يعلوها التاريخ الذي قد يرافقه الوقت واليوم أيضا.

أسرعت إلى أول ورقة، فوجدت أن تاريخها يعود إلى أكثر من عشرين عاما. أخذت أتفرسها وقد استحال بياضها صفارا وتهدلت جنباتها. بدأت أقرأ:

((قررت أن أعود للكتابة، فهي صديقتي الكتومة المخلصة، التي تحتضن كلماتي برقّة دون أن أخشى منها لوما أو عتابا.

ها أنا في هذه الحجرة الحقيرة، أدفع ضريبة عنادي وعصياني، لأني تشبثت بالزواج من هذا الإنسان الأميّ العفن... لكن قبل أن أجلد نفسي لم لا أرفع راية الصراحة في حقي وفي حق كل من اشترك في صنع هذا المآل الكريه.

نعم تزوجت برغبتي وإصراري، لا اقتناعا، وإنما هربا من السطوة والتسلط الأبوي، وتطلعا إلى حريةٍ قد أجدها في مملكتي الصغيرة وبين عائلتي الجديدة.

كان يوسف أول شخص أسمح له بالاقتراب من حِمى قلبي المحصّن بمختلف أنواع وسائل الدفاع الدينية والعُرفية. فتحملت سِياط شعور موجِع بالذنب في حق والداي اللذان ائتمناني على أن أجسّد دور الراهبة الزاهدة. مُتحصنين بسور التدين العظيم، طلباً للنجاة من المجتمع العاهر. فشكّلت أسرتنا استثناء في محيطها. استثناء يتلاشى في اختلائها بنفسها ووحدتها داخل بيتها وهي تحرص على سلوك الطريق القويم. ويندثر وهي وسط «الجماعة» التي تغذي معتقداتها وتشعل جذوتها كلما همت بالخمود والانطفاء.

كان والدي أستاذا لمادة التربية الإسلامية أما والدتي فكانت ربة بيت، وكانت الجماعة الإسلامية هاجسهما، يحضران الجلسات مع «الإخوان» ويقومان بأنشطة كثيرة أخرى.

هؤلاء «الإخوان» كانت لهم رؤية معينة بل وأهداف سياسية بعيدة المدى، لذا كانوا يحرصون على الترابط والتلاحم، ويخلقون لأنفسهم أعرافا كأنهم خلايا متماثلة. كانوا يحرصون على حضور جلسات تُقام

بصفة منتظمة وسريّة في البيوت بالتناوب حيث يُعلَن عن البيت الذي ستقام فيه الجلسة آخر لحظة قبل انعقادها..

فُرض عليّ الحجاب وأنا في الابتدائية، كُنت طفرة في قسمي بل وفي مدرستي بشكل عام. أذكر أن أبي كان يأخذني وأختي إلى خياط طويل عريض مخيف، لا أرى من وجهه إلا لحيته الغزيرة وهي تتحرك مع نحنحته المتواصلة. كان يطلب من أبي أن يأخذ المقاسات كي لا يضطر للمسنا أنا وأختي، ونحن مازلنا طفلتين.. وكان والداي يُلزماننا بارتداء هذه الملابس، حتى إذا ذهبنا إلى المدرسة كنا نجد من السخرية والاستهزاء الشيء الكثير. إذ كنا نُلقب الخيمة المتحركة وأختها...

كنت أنظر إلى الفتيات وشعرهن يرفرف في الهواء أثناء جريهن في الاستراحة، فتختلط عليّ المشاعر بين الرغبة في أن أكون مثلهن، وبين الشعور بالخزي من هذه الرغبة المحرمة.

أما في البيت، فكان علينا أداء الصلوات وإلا كان الجَلد بالحزام مآلنا. كارهة كنت أمارس الصلاة لا راغبة، حانقة لا راضية. وتوالت الأيام وعزلتي تزداد وصمتي يتعمّق، كنت أفضل الصمت والملاحظة، وداخلي أمواج تتلاطم وأنا أقارن بين حياتي وحياة زميلاتي في المدرسة.

وحل علينا أخي الصغير. ولا أنسى بهجة والداي بهذا المولود الذكر وسعادتهما الغامرة به.

كنت عبارة عن عجينة من الرفض والتساؤل، خاصة بعدما استشرى إحساس الدونية بعدما كبر أخي وبدأ يضرب ويصدر الأوامر، وأنا مأمورة بخدمته وسمعه وطاعته، فقط لأنه ذكر..

شعرت بالمقت، أصبحت أكره أخي بل ومنزلنا بأكمله. صرت أبحث عن أي مخرج للهروب من هذا العالم الذي يُضيّق علي الخناق مع شمس كل يوم جديد.

بقيت أختزن كل هذا الغيض في صدري، وأنا صامتة لا أبْدي ردة فعل واحدة، استحلت خليطا من الخوف والخجل والانصياع، حتى وأنا خارج

المنزل وبين زميلات الدراسة كنت أوصف بغريبة الأطوار والمتوحّدة.

أما زملائي الذكور فكنت أتعامل معهم كأنهم مصابون بمرض فتاك، حتى إذا جمعتني الصدفة بأحدهم لم أجرؤ على النظر في عينيه. كنت دائما مطأطأة الرأس، لم أر عينيْ ذكر أبدا، حتى أني سألت صديقتي الوحيدة: «هل للذكور رموش في أعينهم مثلنا؟؟» فقهقهت ضاحكة ثم احتضنتني وقالت لي مواسية: «كم أنت مسكينة يا صديقتي».

هي صديقتي فاطمة، شاهدة على تاريخي المرير من بداية عصر الدمار إلى الآن. لطالما آزرتني وهوّنت علي، وتحملت نوبات بكائي وجنوني، وأنا أراقب ملامحها العاجزة المشفقة.))

بقيت مشدوهة من كل ما قرأت فأنا أعرف جدي وجدتي الحنونين، شخصان عاديان لا يظهر عليهما أي تعصب أو انتماء لجماعات دينية.

أخذت نفسا عميقا، بعد غصة بدا لي كأنها امتدت دهرا. استندت إلى الحائط في محاولة عاجزة للقيام بما يسمونه «ترتيب الأفكار» لكنني فشلت، فعقلي يدور مثل رحى منفلتة مجنونة، دقات قلبي تتسارع في تآمر مع تصاعد أنفاسي المضطربة لتعزف سيمفونية «الصدمة». كان الليل قد أرخى سدوله ونشر عبقه فاستنجدت بكوب قهوة ساخنة، ووضعت الورقة الأولى فوق مكتبي برفق، وحملتُ الثانية:

((تشبثت بيوسف الإنسان الأمّي، بينما كانت حظوظي أكبر بكثير وأنا ابنة السابعة عشر، التي أتابع دراستي في التعليم الثانوي. ربما تنكيلا وثورة على القوانين التي ألزمت بها طيلة حياتي، ربما ثأرا للظلم والقهر الذي شعرت به وأنا في كنف والداي وهما يُبجّلان أخي فقط لأنه يحمل عضوا ذكريا بين فخديه.

كان يوسف يعمل بالنجارة، لم يدرس إلا سنتين أو ثلاث بالتعليم الابتدائي. شاب ممن يرتادون أبواب الثانويات بحثا عن طرائد للمتعة والتسلية.

غازلني يوما، فإذا بي أستجيب لغزله عكس عادتي. صُعِقَت صديقتي

فاطمة وفغرت فمها مشدوهة لمنظري وأنا أتركها وأمشي بجانبه.

أصبحت شخصا آخر... أقترض الملابس من صديقاتي، وفي مرحاض المؤسسة أتخلّص من ملابس الخيمة المتحركة وأرتدي ملابس عادية.. لكني حرمت منها.

تجاوزت الشعور بالذنب اتجاه والداي مع كل حيف يصلني منهما، خصوصا عندما يتعلق الأمر بالإمبراطور أخي.

وجاء اليوم الموعود، كان يوسف في باب المؤسسة ينتظر خروجي من الحصة، وما إن التقيته حتى شعرت بصفعة ملتهبة تزلزل وجهي. كان والدي وقد علا الشرر مُحياه وهو يزمجر: «هيا إلى المنزل».

آه من الحياة حينما يتحول المنزل إلى زنزانة، والوالدان إلى جلادين، فلا رغبة تسيطر عليك سوى الموت. عوملت ككلبة موبوءة، ضُربت وحرمت الطعام وزين جسدي بآثار اللكم وسياط الحزام.

انقطعت عن الدراسة. كان أبي في كل يوم يعود من المؤسسة ينفث شررا ويقول أنه يشعر بالعار، أصبحت أمقت أصواتهم التي تصلني وأنا أفترش الأرض الباردة.

دام حالي أياما، وإذا بيوسف يُحضر أباه وأمه ويأتي لخطبتي، لقد بكيت فرحا ورأيت فيه مُخلّصي وفارسي، رأيته شهما، وتشبثت به تشبثا أعمى، فتزوجته...))

وجدت بعض الدمعات قد انسابت على وجنتي، فألقيت رأسي على مخدتي، وأطلقت سراح تلك الصور لتعتمل داخل مخيلتي.

-2-

شعرت بدفء أشعة الشمس تدغدغ وجهي، لقد حل الصباح! نهضت في تثاقل، أخذت حماما شبه بارد. وقررت أن أتناول إفطاري في مقهى مطل على البحر، علني أتخفف من ركام الذكريات التي أثقلت عقلي ووجداني.

ما إن خطوت خارج غرفتي، حتى قفزت عائدة لأحمل الأوراق. «سوف ترافقينني» حدثتها. وكأن حالة من الاستلاب سيطرت علي، لا أرغب بشيء بقدر ما أرغب في قراءة هذه الأوراق وكشف المحجوب.

أخذت مكاني بالمقهى، وبدأت أحملق في الأفق وأنا أتسال: «هل أولئك الذين نعرفهم هم فعلا الأشخاص الذين نظن؟ هل ما نظهره للآخر هو فعلا ما يجيش في صدورنا وما نحمله من ذكريات وأوجاع؟

تنهدت بحرقة: «آه يا أمي كأن تمثالا مزركشا تحطم وأبان عن الجسد الحقيقي الذي يتضمنه.

تناولت ورقة جديدة:

((آه من الدهر الذي أعياني
فزدت عشرا عن أقراني
كانت طريقي مرسومة
وبين الدهاليز رماني
أ أقول هذا قدري
أم أحارب حرماني

تسارعت الأحداث حتى

لم أعد أعرف الجاني
على قلبي التعيس
ومُغرقي في أحزاني
أنا من أستغرب واقعي
وأكذب عيني ولساني
أنا من لو ولّى الزمان
ما كنت لأعاني ما أعاني
لكن ما باليد حيلة
فأنا اخترت سجني وسجاني.

حروف خططتها والخيبة تملأ قلبي، يوسف الذي ما إن صِرتُ ملك يده رماني وأهملني. رغم كونه شابا في مُقتبل العمر إلا أن عقله كان شيخا أميّا هَرِما، عنيدا متعصبا حتى النخاع. كان يؤمن بدونية المرأة كأنها شيء حتمي وقرار إلهي. وكان يغذي هذه الاعتقادات المريضة بما عاشه منذ رأى النور من المعاملة السادية من طرف أبيه لوالدته.

اكتشفت الجانب المتحجر من قلب يوسف بعد الزواج مباشرة، وأول جرح وَشمه على جسدي هو تصرفه الحيواني ليلة الدخلة. كنت فتاة بدون تجارب، ولا حتى تلك المعلومات التي تتبادلها الفتيات حول هذه الأشياء.

ليلتها رأيت في وجهه تعابير مختلفة، أشعرتني بالمقت وهو يختلي بي لأول مرة. ابتسم في وجهي: «أنت زوجتي حلالي» فطأطأت رأسي في انتظار المجهول.

صامت ككهف مهجور، صلب قاسٍ كالصّخر. شعرت بالتهديد والخوف، فطلبت منه أن يؤجل هذا الأمر ويمنحني وقتا حتى أستجمع شظايا نفسي المتناثرة. نهرني بشدة، وأردف ابتسامة ساخرة نحرت عنقي وقطعت تنفسي.. لم أجد إلا التضرع لله كي يمرّ كل شيء بخير. ضغطت على فمي بيدي لأكتم صوتي، كي أدفن ذاتي كي أستسلم...

تلقف الدم الذي سال مني بقطعة قماش بيضاء، تأمله طويلا ثم

نهض وعلى وجهه ابتسامة رضى وكأنه حقق فتحا عظيما. بقيت أبكي وحيدة والظلمة تلفني. شعرت بالمقت والخوف من هذا السيناريو الذي سيبقى عالقا في ذهني ما حييت.

كنت بالنسبة له دمية... لقد طلب مني أن أسمح له بمناداتي «عاهرتي» أثناء المعاشرة. شعرت بخنجر يخترق صدري، وأن ذاتي تذوب كقطعة جليد وحيدة على صفيح ساخن تحت الشمس. كرهت الحياة الزوجية وصارت واجبا ثقيلا مقززا.

لم يكن هذا جحيمي الوحيد، فجحيمي كان مشرعا على أبواب عدة. كنا نعيش في غرفة حقيرة على السطح في منزل والديه، كان يكتريها من أبيه! توقف عن العمل في النجارة، بذريعة مدخولها القليل. وعوض أن يبحث عن عمل أفضل بدأ يسهر ليلا وينام نهارا، ويطلب المال من أمه بلا انقطاع، فكان هو يستمتع بالحياة ويمضي في الأرض مرحا، وأنا أدفع الثمن بسماع اللوم والتأنيب منها.

قلبي يتمزق وأنا أراه يستيقظ عصرا، يغتسل ويتأنق ثم يقف أمام المرآة يمشط شعره ويرش العطر، نشيطا متحفزا، متطلعا لصوت سيارة صديقه التي تصدح بأصوات الموسيقى الصاخبة. فلا أراه إلا في السادسة صباحا من اليوم الموالي، وفي أحيان أخرى لا يأتي إلا عصرا.

ضقت ضرعا من طغيانه والبركان الذي في داخلي يهتاج ويفور. ما إن أبدي تبرمي واحتجاجي حتى ينهال عليّ ضربا كأنه في حلبة مصارعة. كان يطرحني أرضا ويضرب وجهي بقبضته، فتنتفخ شفتاي وتتحرك أسناني داخل فمي، وتتزين عيناي بزرقة مسودة، فيصير وجهي لوحة تجريدية عسيرة التأويل...

في إحدى المرات هاج كمجنون مختل، عشت فيلم رعب حقيقي في محاولة الإفلات من قبضته والوصول إلى باب المنزل قبل أن يزهق روحي. هربت مهرولة إلى مخفر الشرطة حافية القدمين تصطك أسناني ويهتز صدري...

في المخفر منحوني حذاء بلاستيكيا، واتصلوا بوالدي. أقبلت أمي باكية وضمتني وهي تولول، أما أبي فقد بقي بعيدا ولم يسلم عليّ أو يكلمني إطلاقا.

آه ثم آه من شعوري حينها، أتسعه كلمة خيبة أم حسرة أم هو تَرَدٍ في جُرف سحيق. رحلت مع والداي، دخلت المنزل والغربة تَحُفّني. لم أكف عن البكاء، جاءت أمي لتطمئن علي، احتضنتني لكن حضنها كان لاذعا بكلمات اللوم والعتاب.

بقيت متربصة بزيارة الوسن، فما إن تيقنت أنه تمكّن من والداي، حتى تسللت وخرجت في جوف الليل أهيم على غير هدى. بدأ الخوف يتسرب إلى قلبي، فحاولت إيجاد مكان مليء بالناس بحثا عن الأمان. لم أجد خيرا من محطة الحافلات، أنا التي لا أملك درهما واحدا في جيبي.

صباحا عدت إلى منزله وتظاهرت بأني أجمع حاجياتي، فترجتني أم يوسف أن أبقى وأصبر مبررة أفعال ابنها بكون الرجال كلهم هكذا.. اصطنعت الاقتناع لسبب واحد هو أنه لا ملجأ لي، دراستي تركتها قبل الحصول على الباكالوريا، ليست لي خبرة أو حرفة للعمل، أنا عاجزة.. عالة. وهنا راودتني تلك القولة، وشعرت أني أومن بها حتى النخاع: «سند المرأة بعد أبيها هو راتبها الشهري. لا نقاش.. ولا فلسفة.. إنها الحقيقة». نعم إنها الحقيقة، التي يجب أن أغيّرها، الاستسلام لا يليق بي. لست أنا تلك المرأة الخانعة التي تقبع في مخيلتهم العفِنة. سأريهم أنّي امرأة أخرى.

قررت أن أبحث عن عمل لأحقق ذاتي وأهرب من هذا الكابوس اللعين. وفتح نافذتي الوحيدة على سماء الكرامة.

بدأت رحلة البحث عن عمل، والطواف الذي لا ينتهي على أبواب المصانع المختلفة، حتى عرفت أني حامل، كان خبرا زلزل كياني، وخدّر غضبي على يوسف. امتزجت لدي المشاعر، فالأمومة حلم مُشتهى، وهبة ربانية تتطلع لها كل زوجة حديثة.

تحسست بطني في بهجة طفل بلعبة جديدة. أنّى لمخلوق أن يسكن

أحشائي؟ يا له من شعور غريب، أنا أم! سأكون أعظم أم وأمنح طفلي الحب الذي طالما حُرمته.

وجدت عملا بثمن بخس في مصنع للنسيج. اختلطت عليّ مشاعر الحنق والعجز، وبأني لا أساوي درهما في هذه المدينة الغريبة عليّ، بالرغم من أن مسقط رأسي كان في أحضانها وسنواتي كلها انسابت بين يديها. غربة كانت تضيق الخناق على عنقي ويجثم ثقلها فوق صدري، وأنا أفترش الأرض أتناول ما يشبه وجبة الغذاء في ذلك المصنع البئيس. يوم يجر آخر حتى حصلت على راتبي الأول فهرعت إلى أم يوسف وابتسامة بلهاء ترتسم على وجهي غبطة وسرورا، نصحتني أن أجد منزلا قبل أن يضيع المال هباء. وافقتها عل الفكرة لأني منذ تزوجت لم أحظ بغرفة نوم أو مطبخ أو مرحاض مستقل، كنت أحلم بأن أعيش كما يعيش الناس، أن أحس أني امرأة متزوجة فعلا، لي منزلي الخاص...

رافقتني عند سمسار، أخذنا لمنزل يناسب الثمن الذي كان معي، وتمّ الاتفاق... كان منزل أكثر ما يقال عنه أنه متواضع، به غرفة ومطبخ وبهو ومرحاض، شعرت بالسعادة على الرغم من أن المنزل لا يستجيب لشروط الصحة بالإضافة إلى وقوعه في حي شعبي.

اتصلنا مرارا وتكرارا بيوسف، في انتظار أن يأتي ويرى المفاجأة السارة التي حقّقتها من أجلنا، أخيرا سيصير لنا منزل مستقل، أخيرا...

بعد وقت طويل طرق الباب، كنت وأمه قد افترشنا الأرض في انتظار قدومه، دخل ويداه الاثنتان في جيب سرواله، مشى متبخترا قاطعا البهو ذهبا وجيئة، ونظر إلي وقال ببرود: «لن أسكن في هذا المنزل الحقير، اسكني به وحدك إن أعجبك» واستدار متجها نحو الباب.

شعرت بخنجر ينحشر في صدري، لا أدري كيف فارت الدموع من عيني وأنا أراقبه يمشي الهوينى اتجاه المخرَج... أحسست بنار تتأجج داخل صدري فتبعته واستوقفته، فنظر إلى ببروده المعتاد وقال بهدوء: «أنا لن أسكن هنا».

شعرت بالهوان، وبأن المجهود الذي بذلته كي أحقق لنا استقرارا قُوبِل بالنبذ والاحتقار... تبعته إلى الخارج، وأمه مشدوهة. بدأ يحث الخطى فلحقت به وبدأت ألومه وأعتب عليه وهو لا ينطق كلمة واحدة، صامتٌ كالصّخر، ويداه لا تزالان في جيبه. بقيت أساله: «ماذا أفعل الآن؟؟ صاحب المنزل لن يعيد المال؟ لماذا تفعل بي هذا أنا التي أشقى من أجل الحصول على الاستقرار...» ولم أشعر بنفسي حتى رأيت بياضا وسوادا، فأدركت أنه ضربني برأسه، فأغشي عليّ في الشارع، ومضى باردا جامدا كأنه لم يفعل شيئا. أنهضني بعض المارة والدماء تفور من فمي وأنفي...

أكرهه، أكرهه ملء الأرض وارتفاع السماء، وفي كرهي له تأججت داخلي نار يغذيها إحساسي بالعجز والهوان.

كاد يصيبني مس من جنون وأنا أحاور نفسي: «أ أنا أنا؟ أهذه الحياة التي تحدّيت والداي من أجلها؟ أهذه الحياة التي حلمت بها؟ أمن أجل هذا تركت دراستي التي كانت منتهى سعادتي؟».

يومها قررت شق طريقي الخاص، وسأكون الإنسانة التي طالما أردتها، امرأة مستقلة، نعم تلك أنا شامخة ومستغنية عن زوج أو معيل، سأكون امرأة أخرى...))

هببت واقفة وعدت إلى حجرتي في الحي الجامعي، وألقيت بجسدي وروحي المنهكين فوق فراشي، وغبت عن هذا الوجود الظالم.

-3-

شعرت بصداع، يشق رأسي، وما إن وقفت حتى هجم عليّ دوار شديد. فألقيت جسدي على فراشي وأغمضت عيني لبرهة. سحبت الهاتف ببطء وركبت رقم عمر.

- عمر، أين أنت؟ أنا في حاجة إليك.
- ما الأمر يا حبيبتي؟ هل أنت بخير؟
- بخير بخير... فقط كن في مكاننا المعتاد بعد نصف ساعة.
- بالتأكيد حبيبتي، لكن أخبريني ما الأمر؟
- أرجوك عمر يكفي، هل أحتاج مبررا للقائك؟؟
- لا حبيبتي، فقط أريد أن أطمئن أن كل شيء بخير.
- نعم كل شيء بخير، فقط كن في الموعد.
- عُلم وينفذ، سيدتي.

لا أدري لم اخترت أن أستنجد بعمر، ولا أدري ما الموضوع الذي سأبرر به رغبتي في هذا اللقاء المفاجئ. كنت أشعر بالغربة، غربة رهيبة تحيط بي كأنها صقيع لا ينتهي.

وقفت أمام المرآة، أمارس طقوسي الخاصة التي تسبق أي خروج، خاصة إذا كنت في موعد مع حبيبي عمر. كنت أتحرك كأني منومة مغناطيسيا أشعر بأن عيناي لا ترفان، وأن جسدي ثقيل. شعرت بفتور وندمت على اتصالي به. لكني تحاملت على نفسي وخرجت أجرّ قدماي.

كان عمر شابا وسيما، طويل القامة عريض المنكبين، شعره بني أملس يقصه بطريقة مثيرة تجعله منتصبا عند ناصيته بشموخ، لطالما أعجبت بحركته وهو يداعب مقدمة رأسه ويتخلل أصابعه داخل شعره، وبقيت

أعشق فيه تلك الحركة حتى بعدما توطدت علاقتنا وأصبح في متناول يدي وملكي، فأدركت أنها لم تكن لحظة انبهار، وأنها من الأشياء المثيرة التي أحببتها فيه. كان سواد عينيه آسرا، يشي بغموض مريب تارة، وبقوة داخلية عنيفة تارة أخرى.. ربما انتقلت عدوى الإعجاب إلى باقي تفاصيله الأخرى التي لا يدرك هو أنها تثيرني وتهوي بي في عوالم أخرى.

تعرفت عليه بين أسوار الجامعة، ائتلفت روحانا واتفق هوانا، وهام أحدنا بالآخر. لم يكن عمر أول شخص أربط معه علاقة، تعرفت قبله على أشخاص اختلفت مدة علاقتي بهم. لم أحدّث عمر بهذه الأشياء قط، فالرجال يعشقون تقمص دور الأمير الذي فتح الحصون والقلاع. وقد أعطيته الصورة التي أراد. ليس خداعا بل ردا للجميل، جميل لأنثى أصبح عمر اسما فوق لائحة ماضيها.

وصلت إلى المقهى قبله، كان مقهى مميزا صُمّم بنفَس بحري يشبه شكل باخرة. الواجهة زجاجية بحيث يظهر البحر الشامخ بوضوح. أما العمال فيرتدون لباس البحارة موشى بابتسامة كأنها تركّب فوق وجوههم تركيبا.

امتطيت صهوة الخيال، ساهمة عمّا حولي. تسلل عمر خلفي ودغدغني، فصرخت فزعة. انتبه رواد المقهى لصرختي، فأطرقت خجلة وهمست له:

- ما كان عليك أن تفزعني.

- أسف عصفورتي.

- لقد تأخرت، وتركتني وحيدة. (زفرت متأففة.)

قرص خدي، وقال:

- حبيبتي لا تكوني متبرمة، لقد جئت بسرعة البرق. المهم أخبريني هل أنت بخير؟

تجاهلت سؤاله، ووجهت نظرة ثاقبة نحو عينيه:

- عمر، ماذا إن لم أكن أنا هي أنا، ولا أنت هو أنت. أقصد ماذا إن كنت أقدم لك صورة لا تعبر عن حقيقتي؟

تفرّس في وجهي لحظات، وأمسك يدي:

- حبيبتي ما الذي حصل؟ هلاّ أخرجتنا من هذه الدوامة وكنتِ أكثر وضوحا. أعتقد أن هذا سيكون منصفا أكثر.

كيف أخبره أني وجدت مذكرات أمي، أو المرأة الحقيقة وراء قناع أمي، بل والرجل الحقيقي وراء أبي البشوش؟ كيف أخبره أنهما أتقنا تشخيص دورهما بينما هما شخصيتان مختلفتان عما عرفت أنا وأختي؟

هل ألوم أمي لكونها أرادت أن تمنحنا صورة أم مثالية، ودفنت تاريخها واحتفظت به لنفسها؟ كيف تدّعي أني وأختي أقرب الناس إليها في هذه البسيطة ثم تفصلنا عن عالمها الخاص؟

استيقظت من غيبوبتي على لمسات عمر فوق خدي:

- حبيبتي، ثقي بي، أنا هنا من أجلك، تحدثي مهما كان الموضوع.

- أين تنتهي حريتنا في علاقتنا مع المقربين؟

- أرجوك ياسمين لقد بدأت أفقد صبري. تكلمي!

- انس الأمر.

- ماذا؟ هل أنت مجنونة، تطلبين لقائي على عجل وتأتين كالمنومة مغناطيسيا، وتهذِين بكلام لم أفهمه وتقولين انس الأمر؟

أطرقت وبقيت صامتة:

- ياسمين، ياسمين؟؟

نهضت بغتة، تركته ورحلت. لا أدري لم فعلت هذا، وكيف تجرأت على فعله. لكنني أحسست بالاختناق، وهو لم يكن النافذة التي أحتاجها بالتأكيد.

عدت لحجرتي، واستلقيت على ظهري أحملق في السقف، شعرت بالسوء مما فعلته. حاولت تناسي الأمر، أطفأت هاتفي وأخذت الأوراق وأتممت القراءة:

((باب أمامي فكيف أفتحه

وكيف أصل لبر الأمان

لأنقذ نفسي من حفرة

دفنني بها عنادي وعصياني

إنها الباكالوريا، جسري الذي أحرقته يوم تركت الدراسة من أجل الزواج. عزمت أن أترشح لاجتياز امتحان الباكالوريا الحرة، سعدت لهذه الفكرة وأشعرتني بالانتعاش، وشعرت بأني قد عدت، هي ذي أسماء ستنبعث من رمادها وتحرق الوحش الذي استقوى عليها واغتصب زهرة شبابها.

بدأت أغازل كتب أختي، وأتلصص عليها وهي تستعمل الحاسوب. في البداية أحسست بأن بيني وبين الدراسة سنوات ضوئية، خاصة عندما تحدثني عن برامج الحاسوب والمعلوميات. تعاميت عن جهلي ووعدت نفسي بالصمود إلى آخر رمق... راتبي هذه المرة أنفقته على شراء المقررات الدراسية، ولم أجد حرجا في ذلك، أنفقته برضاي والسعادة تملأ قلبي.

كان صاحب المكتبة ينظر إليّ بإعجاب مشوب بشفقة، كان يعلم أني أرغب في اجتياز الباكالوريا الحرة، ويناولني الكتب وهو في حالة من التأثر.

وجاء الفرج ونجحت، نعم نجحت في بناء الجسر والحصول على الباكالوريا، عندما ظهرت النتائج ورأيت اسمي بين الناجحين، شعرت بخدر في قدمي وتقلص في معدتي، وبدأت أبكي وأبكي وأنا أهمس نجحت نجحت، نجحت أيها اللعين.

أتذكر صاحب المكتبة وهو يصيح وقد ترك كتبه وخرج إلى حيث أقف: « لقد نجحت، نجحت يا ابنتي، والله كان قلبي يتمزق حزنا عليك، وأنا أراك تبذلين مالك في شراء المقررات الدراسية وأنت تجرين طفلتك وتعانقين ما اشتريت من كتب. الحمد الحمد لله. ثم يعانق مساعده، ويصيح: «لقد نجحت هذه المكافحة، لقد نجحت هذه الرائعة. الحمد لله»))

-4-

بدأت مشاعر اللوم تتحول إلى عطف، أتُخفي ابتسامتك كل هذا يا أمي؟ شعرت بوخزات في صدري، كأنها أصوات صغيرة تنخر دواخلي، تعاتبني لأني أخذت موقفا من والدتي قبل أن أنهي قراءة الأوراق كاملة.

في الصباح الباكر أخذت الحافلة قافلة إلى المنزل، كأني أريد أن أكفّر عن سوء نيتي اتجاهها. بدأت الأصوات تتصارع داخل رأسي في مناظرة حامية الوطيس، بيني وبين الأنا الأخرى داخل جمجمتي:

- ها أنت ذي متسرعة كالعادة، قرأتِ وُرَيقات فهزت كيانك واتخذت موقفا. وأردفت أخرى فغيّرّت حُكمك، وهرعت كالمجنونة تنفذين رغبتك في العودة والتكفير.

- لا لا، ما يهم، هو أن أشعر بالسكينة، مهما كان ما ستأتي به بقية الأوراق... أو لا أدري ربما أفعل هذا لأحقق حاجة أخرى، ربما أريد أن أثبت أن أمي تحبني، وأنها لم تتصنع حبها لي كما تصنعت ابتسامتها الهادئة طوال هذه السنوات... لا أدري، فقط اتركني في سلام.

تشاغلت بإقحام سماعات الموسيقى داخل أذني، كانت موسيقى صاخبة، تبثّ في الأوصال النشاط والرغبة في الرقص والحركة. هي نوعي المفضل عندما أكون غاضبة كأني أفرغ من خلالها شحنات الهياج التي تتملكني، وأخرج منها سالمة هانئة.

استقبلتني رائحة معشوقتي السمراء، إنها القهوة، مشروبي المفضل خاصة عندما تكون من يديْ أمي. فتحت والدتي الباب بابتسامة ودودة، واحتضنتني بحنان. لم تعقّب على قدومي المفاجئ. شعرت كأن لها قوة خفية تترصد جميع خطواتي، بل تفصح عن دواخلي ومكنوناتي. دق

قلبي من هذه الفكرة وتخيلت أمي ترتفع إلى عنان السماء وتفتح يداها كأنهما جناحان من سحب، وتبتسم ابتسامتها المعتادة، وتومئ بنظرة هادئة ولسان حالها يقول: «إني أعرف ما يجيش في صدرك صغيرتي، فلا تقاومي وصارحيني». تنفست بعصبية حتى أثرت انتباه الجالستين حولي. رمتني أختي بنظرة متفحصة من خلف نظارتها الطبية:

- أنت بخير ياسمين؟

- بخير يا نسرين، هو ضيق في التنفس لا غير.

- سلامتك.

رددت بابتسامة باهتة، وأمي تتابع الحوار مع تصنعها الانشغال بصبّ القهوة أو تقطيع شريحة خبز. وعادت صورة الإلهة المجنّحة إلى ناظري، لكنني طردتها باستدعائي أختي إلى غرفتنا المشتركة.

هي غرفة متوسطة تضم سريرين وتلفازا صغيرا وطاولة بلاستيكية اتخذتها مكتبا. أما أختي فطالما فضّلت الدراسة فوق سريرها وهي تعانق كتابها، فإذا ما غازلها الوسن استسلمت له وأطلقت أصابعها الرقيقة فيسقط الكتاب أرضا دون أن يوقظها أو يهز لها جفن بما أصدره من ضجيج. كنت أسرع وألتقطه، فأقف برهة أتأمل ملامحها وأنا أعقد مقارنة بيني وبينها. عيناها الواسعتان تختلفان عن عينيّ اللوزيتين، أنفها المكور يختلف تماما عن أنفي المنتصب بشموخ فوق وجهي. شفتاها الدقيقتان بعيدتان كل البعد عن شفتي الممتلئتين. تساءلت: «هل أنت مختلفة من الداخل أيضا يا أختي؟ أم أن صلة الدم تعلو على صلة الشبه أو حتى المعتقدات والأفكار؟ ما كان شعورك أمام زميلاتك وهن ينظرن إليّ باستغراب ويهمسن لك: «كيف تكون هذه أختك؟ إنها لا تشبهك نهائيا!!

انطفأت هذه الومضات على صوت أختي وهي تشاكسني: «كيف حال حبيبة عمر؟ أم هل أقول كيف حال المسكين عمر، أما زال حيا أم قتله سُمّ الياسمين؟»

ضربتها بالمخدة على رأسها وهي تضحك بهستيرية وتصيح: «كان الله في عونه».

- يكفي يا نسرين، لست سيئة لهذا الحد، فقط أومن بالعدالة، أن يحبني كإنسانة وليس كجارية.

- ابنة أمك –نطقت أمي وهي تطل برأسها من الباب– لكنك ربما تجهلين كيف حصلت دولتي على الاستقلال، وكيف حرّرتُ أراضي من سطوة الاستعباد.

قالت نسرين باستهتار:

- لا يا أمي، لا تستعملي هذه الكلمات الثقيلة، فأبي أطيب إنسان في الوجود.

ابتسمت ابتسامة محايدة وانسحبت بصمت.

سألت نسرين باهتمام:

- أختي ما رأيك بعلاقة الرجل والمرأة؟

- حرام، وسيذهبان إلى جهنم وبيس المصير...وأحدثت صوتا مُدوّيا يشبه الصوت المخيف الموجود في شرائط الوعظ وعذاب القبر، وأردفتها بضحكة مجلجلة.

- أيتها الحمقاء أكلمك بجدية.

ألقت عنها لباس المزاح، وجلست باعتدال، وجمعت يديها أمام صدرها كأنها ستصلي صلاة مسيحية. نظرت إلى الأفق الذي لا يتجاوز حائط الغرفة كأنها تنظر إلى بحار ممتدة، وقالت بصوت رخيم:

- أعشق أن أستشعر تحكم الرجل بي، يأمرني وينهاني. أخرج بإذنه وأزور أهلي بإذنه. أستشعر رجولته...

قاطعتها غاضبة:

- عن أي رجولة تتحدثين أيتها الحمقاء، هذا اسمه استعباد!

فاجأها صراخي، وكأنه أيقظها من حلم وردي، فنظرت إليّ شزرا وقالت:

- أنت معقدة، الدنيا كلها هكذا، هل ستكونين ضد الناس جميعا!

ثم هذا ما أراده الله لنا نحن النساء.

- الحمقى والأغبياء هم فقط من يفكرون هكذا. ثم كيف تعرفين ما يريده الله لنا.

قاطعتني بثقة:

- بالرجوع إلى القرآن والسنة، فالله...

هببت واقفة بعنف، ووجهت لها نظرة تشتعل شررا، وقلت وأنا أزم شفتي:

- يكفي يا نسرين، الحديث في هذا الموضوع يستلزم زادا علميا لا نملكه.

خرجت من الحجرة في توتر واضح، استوقفني صوت أمي الهادئ:

- ياسمين هل لنا أن نتحدث قليلا لو سمحت؟

- بكل تأكيد أمي.

ظننتها ستعقّب على جدالي مع أختي نسرين، لكنها اصطحبتني للشرفة. جلسنا في وضعية متقابلة، ناولتني كأس عصير برتقال بارد:

- تناوليه حبيبتي، إنه مفيد لك.

أذعنت لأمرها في ترقب، أخذتْ كأسها وارتشفت قطرات منها بهدوء أقرب ما يكون إلى المصطنع:

- حبيبتي ياسمين، بقدر غموض الحياة، واستعصاء إدراك أسرارها، وتمثّل سيرورتها. بقدر ما تمعن في الاستهزاء منا، والتلاعب بنا. إنها تتحدانا فندخل رهانا خاسرا منذ أن يُفرض علينا الاشتراك في لعبتها بالقدوم إلى هذا الوجود. لذا أطلب منك ألا تستغربي من دوائرها، ولا تنصدمي من ألاعيبها. ردّدي دائما: «كل شيء ممكن» حتى تصُدي عن نفسك أي صدمة قد تقصم ظهرك.

- فهمت أمي، ولكن ما مناسبة هذا الكلام؟

- لنقل إنها جرعة وقاية، ليس إلا.

شعرت بحرارة تسري في جسدي، تساءلت: «هل تعلم أمي أني وجدت الأوراق وأخذتها؟ وإن كان الأمر كذلك، ما هذه السكينة التي تتحلى بها؟ هل هي قناع جديد من أجل تبرير تاريخها المخفي؟

حركت رأسي صعودا ونزولا أنْ فهمت. فابتسمت بهدوء، وارتشفنا عصيرنا ونحن نتحدث عن أحوال الجامعة والدراسة.

-5-

إنه الليل، عدوي اللذوذ الذي يوقظ كل هواجسي وينصبها تباعا أمام عيني. حزّ في نفسي أن عمر لم يحاول الاتصال إطلاقا، زفرت في غضب، وهمهمت: "فليذهب للجحيم" ثم ما لبثت أن أمسكت الهاتف بين يدي كأنني أتربص باسمه فوق شاشته.

تقلبت يمينا ويسارا، وقد جثم اسم عمر على صدري. شعرت بالغيض لأني لم أستطع التخلص منه أو التشاغل عنه.

أخذت الهاتف مرة أخرى وركّبت رقمه، بدأت أسمع صوت الرنات تتعاقب وقلبي يدق بشدة، خشيت أن أجد منه تمنعا وصدا. فتح الخط فتنفست في ارتياح بعد اختناقِ خوفٍ كتمَ أنفاسي طول مدة الرنين. همست:

- عمر؟
- نعم ياسمين.
- كيف حالك؟
- بخير.
- جيد. لم تسألني عن حالي، أم إنه لا يهمك؟

انتفض بعصبية، هل أنت مجنونة؟ تستدعينني على عجل ثم تهلوسين، تتركينني وتمضين. وتريدين أن أسأل عن أحوالك؟؟

بقيت صامتة لبرهة، سعدت أنه لم يقفل الخط، واستشعرت فداحة خطئي، فهمست:

- آسفة.
- لا داعي يا ياسمين، أنت تحتاجين فترة هدوء لتستعيدي حيويتك،

وتُقَوّمي نظرتك للأمور. ليلة سعيدة.

خرس لساني عن الإجابة، فأقفل الخط، وبقي الهاتف في يدي المرتعشتين. امتزجت مشاعر الندم والحسرة والشعور بالإهانة. لقد أغلق الخط في وجهي! انسابت الدموع من عيني متدفقة دافئة، أحسست بغصة، وراودني خوف ورايات الفقد ترفرف بعنف قرب وجهي، وهي تحملق بي بصفاقة.

رجّتْنِي أسئلة حادة بعنف: «أ تحبينه يا ياسمين؟ أتعشقينه إلى درجة أنك لا تتحملين فكرة فقدانه؟ أدركت أني لم أفكر في الموضوع من قبل، ربما لأني كنت أعيش كل يوم على حدة. ركنت له واستأنست به بل أدمنته دون أن أشعر. ماذا أفعل الآن؟ تبا، ماذا أفعل؟»

ركّبت رقمه مرة أخرى، وبقيت أنتظر. لكنه رفض أن يجيب. ربما هو غاضب مني إلى درجة أن صوتي يشعره بالاشمئزاز. شعرت بوخز في قلبي، وأصابتني نوبة هستيرية من الرغبةِ في الاتصال، بقيت أتصل وأتصل عشرات المرات. لكنه لم يجب.

لم أدرِ كيف وجدْتُني في المحطة، متجردة من أي خوف أو قلق من الليل الذي بدأ يرخي سدوله رويدا رويدا. كأن جنا لبسني وأنا أمضي بخطى واثقة كخطى جندي يستعد لعملية انتحارية.

وصلت بعد مدة بدت لي دهرا، لم أعط نفسي فرصة التفكير أو مقارنة الخيارات، توجهت رأسا إلى ذلك الشارع الذي طالما احتضن افتراقنا بعد رفقة ممتعة.

طرقت الباب، ففتحه شاب معتدل الطول، مسالم الملامح، لكنه كان مستغربا:

- هل من خدمة آنستي؟

- أريد عمر، لو سمحت.

أقفل إلى الداخل فتعالت الضحكات تناوش عمر وتصفه بالعاشق. خرج إليّ لاهثا:

- أيتها المجنونة، كيف تأتين إلى منزلي وأنت تعلمين أني أشارك السكن مع زملائي؟ جنونك لا ينتهي.. أنت تغيضينني.

لم أنطق ببنت شفة، بقيت أحدق به وتضاريس وجهه ترسم أشكالا مختلفة تنم عن غضب محتد.

بدأت الدموع تتساقط من عيني، فصمتَ فجأة، ثم اقترب مني وضمني بقوة:

- لا تبك، أحبك مجنونتي.

زاد اختلاج صدري بين يديه، فقبل رأسي. وطلب مني أن أسبقه للشارع ريثما يغير ملابسه ويلحق بي.

تمشينا بصمت على جانب البحر، وبعدما كاد الصمت ينبعث شخصا حيا بيننا. نطقت فيما يشبه الهمس:

- عمر أنا آسفة، لا أستطيع أن أبرر لك تصرفي الأرعن. فقط ألتمس منك أن تعذرني.

- لا أجد حرجا في مسامحتك يا ياسمين، ما حزّ في نفسي هو المسافة التي وجدتها بيننا، ولأول مرة أكتشف أني لا أفهمك إطلاقا، ربما لم أفهمك قط.

- لا تقل هذا يا عمر، أنت تمعن في تعذيبي. فقط انس الأمر حبيبي، لقد اشتقت إليك.

- وأنا أيضا اشتقت لك أيتها الياسمينة المجنّحة. فقط عديني أن تكوني واضحة شفافة معي، سيكون ذلك أكثر إنصافا.

- أعدك يا نور حياتي.

-6-

شعرت بتعب عظيم، كأني خرجت للتو من معركة ضارية، وحمدت الله أني لم أخسر عمر الذي اكتشفت لأول مرة مدى حبي له، وخوفي من فقدانه.

عُدت إلى أوراق أمي، وتذكرت نجاحها في بناء الجسر أو بالأحرى حصولها على الباكالوريا. طربت لتلك الفرحة الملحمية التي اجتاحتها. وابتسمت بهدوء وأنا أحمل بقية الأوراق:

((هرعت إلى كلية الآداب، وتسجّلت بشعبة الفلسفة بعدما أخذت وعدا من أمي بالتكفل بمصاريف التنقل والكتب. ما إن ولجت بابها الواسع حتى شعرت بانقباضات في معدتي تشبه تلك التي تراودني أوقات الامتحانات. أحسست بضآلتي أمام أهل الدار، أقصد الطلبة وهم يمشون بثقة وقد نفخوا صدورهم مثل الديكة وعلى وجوههم ابتسامة رضا، هكذا كانوا يبدون لي، وأنا بضآلة حبة قمح في تيار جارف.

تصنعت الابتسامة ومحوت ملامح الدهشة، ومضيت قُدما، تلاشت الصور من حولي ولم أعد أرى إلا شهادة تؤهلني للحصول على وظيفة وتمنحني الكرامة وتحررني من القيد.

دارت عجلت الأيام، ومع كل يوم كنت أنفض غبار الذل والخنوع وأصنع جلدا جديدا «نعم سأحقق ذاتي، وأفرد جناحي كطائر حر، سأنعتق من أدغال العبودية وأفتح نافذتي للشمس والهواء»

ومع كل سنة كنت أرتقيها في سماء العلم، أنظر خلفي فتتسع الهوة مع المرأة التي كُنتها، وأزيد بعدا على عالم يوسف والأمية والمصانع.

كنت متزوجة مع إيقاف التنفيذ، أي أنني أقطن بالحي الجامعي، وأخذ

المصروف من والديّ دون أية علاقة بيوسف، الذي يمضي في الأرض مرحا. كان هذا مريحا بالنسبة لي ما دام لا يقلق راحتي أو يعرقل دراستي، ومريحا له أيضا ما دمت لا أعترض سبيله، أو أطالبه بالإنفاق.))

تركت الورقة تنساب من بين أصابعي، وأنا أحاول أن ألبس أبي الودود جسد يوسف القاسي الظالم، لكني لم أجد لذلك سبيلا، قالب يوسف لا يناسب والدي، كيف لتلك الملامح الدافئة المشفقة أن تختزن كل هذا الاستبداد والقسوة! لكنها الحقيقة، والحقيقة غالبا ما تكون مُرّة المذاق.

والدي يعيش حاليا مع زوجته وابنتها، لكنه يجتهد في إظهار مشاعر المودة لي ولأختي نسرين. لا يخلِف موعدا ويكون حريصا على لقاءنا في العطل والمناسبات.

تعلمت وأختي فن العيش المتشظي، نصف لوالدي وآخر لأمي التي احتوتني وأختي بحنانها وسعّة صدرها، فكانت لنا صديقة صدوقة أكثر منها أما. أو هكذا كنت أظن، على الأقل قبل أن أعثر على هذه الأوراق.

حاولت أن أحمل نفسي على الفصل بين «يوسف في المذكرات» و»يوسف والدي العطوف»، الآن فقط أحتاج لأن أكون ممن يكذبون على أنفسهم ويصدقون كذبهم. وأنا أريد أن أصدق أن أبي ليس ذلك الشخص المتسلط الكريه.

استلقيت على ظهري وبدأت أتأمل، تساءلت: هل الزمن كفيل بردع طغيان البعض؟ أتراه يلقنهم درسه؟ أم تراهم يصلون إلى الحقيقة؟ لكن ما هي الحقيقة؟ هل هي واحدة أم تتعدد بتعدد وجهات النظر المختلفة؟

فجأة قفز عمر خاطرا أمام عيني فاهتز قلبي، أتراه ما زال يؤاخذني على جنوني؟ أم كان الأمر سحابة صيف؟

تفحصت الهاتف فلم أجد رسالة ولا اتصالا منه، حزّ ذلك في نفسي واستنفر حواسي، فنهضت بعصبية وتوجهت نحو الشرفة. استقبلني هواؤها البارد كإطفائي كنت في حاجة إليه، فخفّ توتري، وركبت رقمه

على مهل وأنا أستمع لرنة الانتظار. أجابني بحبور:
- أهلا بمجنونتي الجميلة.
تنفست نفسا عميقا بعث الراحة في أوصالي وأجبته:
- أهلا بفارسي الوسيم، هل من مخططات هذا المساء؟
- كلي لك، تفكرين بشيء معين؟
- شيء واحد، وإلى الأبد: أن أكون معك.
- ما أعظم حظي.

قفزت حبورا وانطلقت لأعانق المرآة بنهم، أريد أن أكون في أبهى حُلّة، أن أدهش عينيه وأسلب فؤاده، لأني... لأني أعشقه. «أعشقك عمر» صرخت بجنون.

-7-

لبستني حالة شغف غامرة، أحسست بالسعادة تتدفق من حولي ونسيت أمي وأوراقها... أنظر إلى عمر فتأسرني بسمته وأشعر بأن قدمي ترتفعان عن الأرض، إني أسير فوق الهواء ونسيم الحب يحملني.

امتدت أنامله إلى يدي ونظر إليّ بابتسامة مشرقة:

- لننطلق أميرتي.

ومضينا نركض في الشارع كالأطفال الصغار يمسك أحدنا بيد الأخر، غير مبالين بالأعين الحانقة.

زرنا مدينة الملاهي، رقصنا كالمجانين على ألحان الموسيقى، سرقنا قبلات على حين غرة. شعرت بنشوة وسعادة لم أرد أن تنتهي.

كان موعد إغلاق أبواب الحي الجامعي يتربص بلحظاتنا الجميلة، لكنني تعمدت تناسيه، أردت بشدة أن أكون معه، أردت أن أرتشف من السعادة حتى الثمالة، حتى الجنون.

توقف عمر فجأة وهو يشد على يدي:

- الموعد... الأبواب.. لقد تأخرت عن موعد الدخول إلى الحي الجامعي.

تظاهرت بأنني متفاجئة، ولزمت الصمت وأنا أراقب حركاته وسكناته بدقة.

- حبيبتي ما الحل؟ ماذا سنفعل الآن؟

- أريد أن أبقى معك، لا يهم كيف ولا أين، المهم أن أكون معك حبيبي.

- ياسمين! هل تريدين أن تفقديني صوابي؟؟

- لا تغضب حبيبي، ولا تفسد لحظات السعادة التي عشناها. الأمر بسيط سأقضي ليلتي في فندق.

أطرَق عمر وهو متجهّم الوجه. كنا نسير بخطى رتيبة، فجأة شدني من يدي بقوة وانعطف باتجاه مقهى تعودنا ارتياده.

- ما الذي تفكر فيه يا عمر؟ هل سنقضي...

أغلق فمي بيديه:

- لا تسألي كثيرا، فقط انتظريني هنا.

- كيف...

أشار إليّ بوضع أصبعه فوق شفتيه فجلست في طاولتي باستسلام وراقبته وهو يكلم النادل وينصرف.

شعرت بالارتباك، ودقات قلبي تتسارع والأفكار في عقلي تتصارع. داهمني النادل وصوت كأس الشكولاتة الساخنة يطرق طاولتي. ابتسمت له شاكرة.

اعتراني ثقل فوق صدري وأنا أتطلع إلى الباب بلا انقطاع. فجأة هب النادل بابتسامته الهادئة:

- تفضلي آنستي. السيد يناديك.

نظرت إليه بتوجس، كدت أغير عليه بوابل من الأسئلة، لكنني هببت واقفة واندفعت نحو المخرج. كان الخوف يطوق جسدي، هل يريد النادل أن يتخلص مني باتفاق مع عمر؟ هل تركني عمر بهذه الطريقة؟

لمحته وكأن الشمس تشرق ليلا. كان يركب سيارة متواضعة والابتسامة تزين محياه، وهو يشير إليّ بيده. هرولت نحو السيارة، وقفزت في حضنه وصدري يختلج فيما يشبه البكاء.

- ظننتك تركتني أيها الشرير.

- عيب عليك، كيف أترك الهواء الذي أتنفسه، والنور الذي أرى من خلاله. أخبريني ما رأيك بهذا الفندق؟

- ماذا تقصد يا عمر؟

- إنها سيارة صديقي، سنقضي بها ليلتنا هذه. ما رأيك؟

فغرت فمي باستغراب:

- نقضي بها ليلتنا؟

- ألم تقولي إنك تريدين أن تكوني معي، ولا يهم كيف أو أين!

لم يترك لي فرصة للإجابة، جذبني نحوه بقوة وطبع قبلة فوق شفتي، انصهرت بين يديه كقطعة ثلج هشة.

انطلقنا بالسيارة وتركت شعري يرفرف مع الريح، وفتحت أصابعي ليتخللها الليل الندي. أسرني جمال الليل الضارب في الغموض. الشوارع هي وليست هي، السماء هي وليست هي... حتى الهواء له عبق مميز.

توقفنا على تلٍ تظهر منه المدينة كصفحة ماء مزركشة، امتزجت عليّ أحاسيس الإعجاب والاغتراب. ترُى ما موقعي وسط هذه الزخرفة التي تخفي شوارع وبيوت تنضح بأسرار وخبايا مخيفة.

تطلعت للسماء فأسرني جلال المشهد، نجوم متلألئة تغازلنا بحياء في بساط اختلطت فيه الزرقة بالسواد. أيقظتني يدا عمر من غمرتي وهما تحتضنانني بهدوء:

- ما أجملك ليلا وما أبهاك نهارا..

وضعت رأسي فوق صدره، وسكنت إليه وأنا أسمع دقات قلبه. شعرت بالأمان وبانصهار الزمان وأن الكون لا يحتضن سوانا. فجأة انهارت الأرض تحت أقدامنا على أضواء وأصوات أغارت علينا من حيث لا ندري. اختلطت عليّ الأصوات وأخذت وقتا لأدرك أنها غارة أمنية، وأننا تعرضنا للاعتقال.

-8-

عندما يزمجر الشرطي: «أنزلهما للأسفل» تعلم فورا أن الجو حالك والليل السرمدي مقبل. زُج بي في الزنزانة الخاصة بالنساء، وأخذ عمر لتلك الخاصة بالرجال. انقض علي ألم بنكهة المصائب، وتراءى لي الشيطان وهو يرقص أمامي قائلا:

- تفضلي عزيزتي سيكون لديك الوقت الكافي هنا للتفكير في الروايات والمبررات.

جلست القرفصاء في ركن قذر كبقية الزنزانة، عيناي تترقبان كل الحركات والسكنات، وأذناي تتطلعان لصوت عمر دون جدوى، يبدو أنه ركن إلى صمته مثلي. صمت تحطمه أصوات استجداء غطاء أو سيجارة، توسلات رتيبة لا تنقطع في مقابل تجاهل مطلق لا يرحم.

لا أدري كيف ولا متى نِمْت. آنست إلى تلك القذارة وأسلمت جسدي ليفترش أرضها مستسلمة لسلطان النوم. أيقضني صوت الحارس الجهير وهو ينادي باسمي ويأمرني بالتقدم نحوه.

كنت في حالة مزرية رسمت باقيا المكياج لوحات تجريدية على وجهي، وأصابت ثيابي من قذارة الزنزانة ما أصابت. لمحت والداي، فأطْرقتُ خجلة، لم أملك أن أحبس الدموع لحظة رأيتهما. كانت أمي تتحدث مع الشرطي بينما كان أبي يوزع نظراته بيني وبين عمر فيما يشبه المقت والحنق. بينما كانت نظرات أمي متوسلة عطوفة.

لم أدْرِ كيف سَوّت أمي المسألة لكني فرحت بمعانقتي للحرية، ورؤيتي للسماء الزرقاء. فرح لم يعكره إلا موقف والدي الذي استفزني، خاصة وأن عمر كان غارقا في شعور بالخزي تحت سياط نظراته الملتهبة. للحظة

كدت أنفجر في وجه أبي معاتبة، لكني تراجعت وكتمتها في نفسي ولم أبدها.

كانت أمي لبقة جدا مع عمر، وهذا منحني شعورا بالراحة وبالقرب منها أكثر من أي وقت مضى. لكنني عندما التفت إلى وجه أبي وقد شابه السواد حنقا، شعرت بأني أفضل عدم رؤيته مرة أخرى.

سيطر عليّ شعور بالضيق، فشددت يدي أمي وأخبرتها برغبتي في العودة إلى الحي الجامعي بدل مرافقتهما إلى البيت. فوجئت بأبي يقف فجأة بشكل عصبي وينظر إلى عيني مباشرة:

- إلى البيت يا ياسمين. وأقصد بيتي أنا.

- هذا لن يحصل يا يوسف، فقط اتركنا في سلام.

زمجر في غضب:

- هذا نتاج تربيتك وأفكارك الخرقاء.

تجاهلته أمي في برود تام، وخاطبتني:

- عليك أن ترتاحي حبيبتي.

أذعنت صاغرة، وأشرت برأسي موافقة:

- لكن من الضروري أن أحضر أوراقا وكتبا مهمة من غرفتي في الحي الجامعي.

- حسنا حبيبتي سنفعل.

همهم أبي باستهزاء: «كتب!»

-9-

انقطع اتصالي بعمر، لا أنا بادرت بالتواصل ولا هو فعل. اختلطت عليّ المشاعر، وأحسست بأني في حاجة إلى وقت كي أرتب أفكاري. والأرجح أنه مثلي، يحتاج وقتا...

على غير عادتها تركتني أختي وشأني، لم تسأل ولم تعلق. حتى أنها صارت تنام في الصالون بحجة أنها تحب مشاهدة التلفاز. أدركت أنها تمنحني المساحة التي أحتاجها، وقدّرت لها ذلك.

شعرت بأنني دخلت في حلقات مفرغة من التفكير غير المجدي، ومن جدال داخلي عقيم. لذا استنجدت بمذكرات أمي السرية، فهي تشعرني بأن مشاكلي وهواجسي هينة أمام ما تنضح به من أسرار.

اخترت الورقة الموالية ووضعتها بحذر بين دفتي دفتر، حتى لا يفاجئني أحد على حين غرة فاضطر لإخفائها.

((...«مراقبتكِ لي لن تمنعني من خيانتك، إنها تجعل الأمور أكثر متعة وتشويقا» كانت هذه جملة قالها لي يوسف مع ابتسامة استخفاف وتحدّ. جملة نحرت كل خيط يربط بيني وبينه، وحقنتني في الوريد بمشاعر كره لا تنتهي.

خيمت على سمائي غربة سرمدية، غمرت ما حولي من نور بعثه نجاحي الدراسي. كنت متورطة مع يوسف بسبب الطفلة التي تجمعنا ياسمين الصغيرة، كانت قيد يكبل يدي ويثقل قدمي، وجرحا يدمي قلبي. شعرت بأنها ورطة ألصقتني بيوسف إلى الأبد.

قاومت الهزيمة كغريق يقاوم أمواجا تجذبه بشراهة نحو القاع، كلما زاد اختناقي وتعالت حشرجتي كتمتها بحقنة من اليقين بأن الغد لي، إنه الغد

الذي أصنعه بيدي حيث السماء رحبة لا سياط فيها، وهواء نقي من أنفاس الظلم والسيطرة الكريهة.

تلقفتني الجامعة كأنها أم حنون، وجدت في أحضانها نفسي الضائعة، كنت أشعر نحوها بانتماء غريب، حيث إن بُعدي عنها يشعرني بالحنين. بين أسوارها تخلصت من ثياب الراضخة الخانعة، وأشرعت نوافذي على العلم.. على الحياة. في المقابل كانت تكتم أنفاسي غربة ثقيلة عندما أعود لبيتنا ولمدينتي التي توهمت أني أهيم بها عشقا.

لم أنتم لأي فصيل طلابي، لكنني كنت أستمتع بحركية هذه الفصائل وتبنيها لرؤى وقضايا صحيحة كانت أم خاطئة. كنت أستمتع بالمراقبة، وأنا أنسج في خيالي قصصا مبتورة عن حيواتهم المختلفة.

وعلى عكس الانتماء الذي شعرت به اتجاه المكان، كانت علاقتي بالزملاء محدودة وشبه منعدمة. كنت أستمتع بوحدتي رفقة خيالي الجامح الذي لا يستكين. سعيدة كنت بالتغلب على قيد أراه يندثر مع كل فصل دراسي أجتازه بنجاح وتفوق.

انصهرت سنوات الإجازة الثلاث تحت قيض الأيام الحارق. وأقبلت على الماستر وأنا مستكينة لحياتي، لا أشعر بحاجة إلا إلى تحقيق الذات. ولم أفكر في الوغد يوسف إلا لِماما، خاصة في مساءات كنت أخرج فيها إلى حديقة أو ملعب الحي الجامعي، فأجد العشاق يختلسون قبلات تحت جنح الظلام وهم هائمون، كأنهم منقطعون عما حولهم إلى جناتهم الخاصة. حينها فقط كان شيء ما يخزني في قلبي، كأنها طفرة حزن توسوس لي: «ألا تستحقين أيضا قصة حب كبقية الخليقة؟ ألا يكفيك ما اغتصب من حياتك وأنت في عمر الزهور؟». أجُرّ خيبتي ملتحفة بصمت ثقيل، وأتوجه إلى حجرتي التي كانت تشاركني إياها ثلاث طالبات حُرّات لم يقيد الأسر أيديهن بعد، ولم يُكبّل الاستعباد أرجلهن. كنت أنظر إلى غيري من الطالبات اللواتي يتابعن مسيرتهن الدراسية دون تعثر وتوقف كما حصل معي، فأغبطهن على نعمة لا يدركن قيمتها.

فأتطلع إلى النجوم قائلة: «هنيئا لكن، فلتعشن الحياة، كل الحياة بدون إحراق مراحل أو انتحار مبكر.))

آلمني وصف أمي لي بالورطة التي ربطتها بيوسف، رغم أنها كانت حقيقة لا أستطيع إنكارها، فلولا وجودي في حياتها لما اضطرت إلى النظر في وجهه إلى يوم القيامة.

وضعت الأوراق تحت المخدة، واستغرقت في نوم بلا مقدمات. وهو شيء نادر بالنسبة لي، فالنوم غنيمة أحتاج للحصول عليها إلى خوض حرب ضروس مع أفكاري وهواجسي المتطاحنة. لكن غنيمتي اليوم أتتني صاغرة وحملتني نحو العدم.. نحو السلام..

-10-

أطل صباحي الجديد، وما إن لبسني الإدراك حتى قصفتني فكرة تجاهل عمر لي بعد حادثة الاعتقال. فلم أجد رغبة في النهوض من مكاني أو التكلم مع أحد إطلاقا.

سمعت طرقات على الباب، بالتأكيد ليست نسرين فهي تستمتع بالاقتحام المباشر دون مراعاة لأية آداب أو حدود. كانت أمي، بهدوئها المعتاد. انسابت إلى الغرفة وجلست على طرف السرير، نظرت إليّ بتفحص قائلة:

- هل من مخططات لهذا اليوم؟

- لا أظن ذلك، أفضل البقاء في السرير.

- حسنا حبيبتي، سترافقني نسرين إلى المركز التجاري لشراء بعض الحاجيات الضرورية.

- هل تحتاجين مساعدة يا أمي.

- لا لا حبيبتي، فقط كوني بخير.

منذ مدة طويلة لم أعانق أمي، لكنني لحظتها شعرت بحاجة إلى هذا العناق، فارتميت في حضنها وكدت أجهش بالبكاء. لم تنبس ببنت شفة، مسّدت شعري بهدوء، وطبعت قبلة فوق جبيني وانسحبت بنفس الهدوء الذي دخلت به.

سحبت الأوراق من تحت المخدة بعدما تأكدت من خروجهما. قرأت:

((زادت الهوّة بيني وبين أسرتي، خاصة باختياري «شعبة الكفار» كما وصفها والدي. كان الشعور بالخضوع الأبدي يكتم أنفاسي، فيجعل مني جسما متحفزا وشيك الانفجار.

أطلقت العنان للتفكير والتأمل، تساءلت وفتحت نقاشات ضارية مع أشخاص حقيقين وافتراضين. أحاطت بي أسئلة وجودية، وأسئلة ميتافيزيقية وعلامات استفهام امتدت إلى أقدم العصور. لكن أسئلة معينة ألحّت علي حتى تشكّلت إنسانا كاملا يستفزني ويهزأ بي، ويستلذ معاناتي. هي أسئلة انبثقت من شخصي، مواقف كثيرة عُوملت فيها كإنسان من درجة ثانية فقط لأنني امرأة. أشياء أعايشها يوميا، وتجري في جسد المجتمع منذ الأزل.

كنت أفاتح أمي بهواجسي هذه، مع كثير من الحرص والتحفظ، حتى إذا احتد النقاش وأرخيتُ الزمام، وصفتني بالوقاحة، وبأن الجامعة أفسدت أخلاقي، وأن شعبة الفلسفة تقودني لا محالة نحو الكفر والمروق. هكذا كانت تنتهي نقاشاتنا العقيمة، لأجد نفسي في النهاية مضطرة إلى تقبيل الرأس واليدين، وطلب العفو والسماح والمغفرة، ثم تأدية ركعتيْ استغفار تحت المراقبة المشددة.

كنت أتجرّع هذا الوضع على مضض، متطلعة إلى الفكاك من هذا العالم المتحجر والاستقلال بنفسي.

تحفزت حواسي وأنا أسمع لعنات والدتي تشوبها كلمات بذيئة! فقفزت من مكاني مذهولة أتحرى الأمر العُجاب الذي جعلها تخلع قناع التأدب والوقار. لمحت على الشاشة شيخا من أولئك الشيوخ الذين يخضبون لحاهم الشعثاء بالحناء فتصير برتقالية تناسب السيمياء الكُلي للمسرحية الملقاة. تلقفتْ أذناي بعض العبارات الزاجرة للمرأة الآمرة بالطاعة والولاء حتى عند الضرب، كل هذا لم يفجر والدتي وهي المرأة المؤمنة الطائعة. ما استفزها هو تعديد الشيخ لمنافع تعدد الزوجات وتوعد كل امرأة تقف حجر عثرة في طريق زوجها بالويل والثبور، مدعما قوله بترسانة من الحجج والشواهد والدعوة إلى الاقتداء بالرسول في تجاوز أربع نساء إلى تسع.

زمجرت أمي في حنق: «لا يهمكم إلا النِكاح، ألا توجد مصائب كثيرة تستدعي الدراسة والتأمل والمناقشة؟» بدأت تبحث عن جهاز التحكم

بعصبية وهو يأبى إلا أن يلاعبها الغمّيضة، والشيخ يرسل ألحانه الشجية:
«وأخيرا أيتها المرأة اتق الله في نفسك وفي زوجك، وأذعني للأوامر الإلهية، ولا تكوني ممن يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض...»
استخرجت أمي جهاز التحكم لاهثة وغيرت القناة كأنها تفر من حريق كاد يلتهمها.
لا أخفي خبثي حينها وأنا أراقب المشهد، شعرت بأنها الفرصة ملائمة للانتصار على والدتي في جدالنا الأزلي العقيم حول المرأة والدين والمجتمع. جلست بهدوء على الأريكة المقابلة. أرسلت سؤالا تسبقه تموجات التوتر والترقب:
- أمي، هل تتقبلين أن يتزوج أبي عليك بامرأة أخرى؟
نظرت إلي وكأنها ترميني بنصل حاد:
- لا.
- ولا أنا، هو شيء فوق استطاعتي.
طأطأت رأسها في صمت. تابعتُ:
أتذكرين قصة تلك المرأة التي تزوج عليها زوجها، فأصيبت بالجنون من هول الفاجعة، وخرجت عارية إلى الشارع تقطع ملابسها. كانت مأساة حقيقة، المسكينة لم تتحمل وقع الصدمة وأصبحت فريسة للمتشردين والمعتوهين كل سنة تضع طفلا لقيطا. كل هذا إرضاء للرجل. يا للظلم!
- أتذكرها جيدا كانت زوجة أحد أعيان المدينة، انتشر خبرها كالنار في الهشيم، فعلا الدنيا غير عادلة.
- ليست الدنيا يا أمي، كفانا لوما فارغ المحتوى!
- في هذا الموضوع يختلط عليَّ الحابل بالنابل، لذا أفضل تحاشيه.
- تحاشيه ما دمت في منأى عن ضرره؟ ماذا عن المعذبات على امتداد المعمور؟
- هل تريدين أن أصلح العالم؟

- قلتِ: «أصلح» إذن تقرين بأن هناك شيئا خاطئا.

- أسماء أنت تقودينني للجنون، هذا يكفي.

هبّت أمي واقفة، وهمت بمغادرة الغرفة، استوقفها صوتي:

- فقط أخبريني، كيف يخلق الله الأنثى بصفات معينة ويعطي شرائع مخالفة لتلك الصفات؟ لم هذا الإمعان في التعذيب؟

استدارت والدتي كأنها إنسان آلي:

- أوصلت بك الوقاحة إلى المساس بالذات الإلهية أيتها المارقة، اخرجي من بيتي فورا.

لم أكد أفتح فمي بحرف حتى انقضت على شعري وجذبتني مثل شاة تساق إلى الذبح. فتحت الباب وألقت بي خارجا. لم أبد أية مقاومة تذكر وبدأت أنزل السلم ودموعي تفور بأنفاس مكتومة. تفاجأت بالباب يفتح وإذا بأمطار من الملابس والكتب الخاصة بي تُلقى فوق رأسي.

شعرت بالمرارة والأسى يملأن الأرض ويجتاحان السماء. حمدت الله أن هاتفي يلازم جيبي، فاستنجدت بصديقتي فاطمة التي أغاثتني بحذاء وجلباب ومال كاف لإيصالي إلى الحي الجامعي.))

-11-

أصابني الذهول، سكنتني صورة أمي المنكسرة وهي تعود أدراجها إلى الحي الجامعي، مطرودة، خائبة جرّاء فكرة، جرّاء حقها المباح في التفكير والسؤال. الآن فقط فهمت سِعّة صدرها في تقبل موضوع حجزي وعمر.

رنّ اسم عمر في ذاكرتي فأطلق صدى عميقا عمّق خيبتي بغيابه وإهماله. كيف تتبخر معاني العشق والوله لتصير سدا منيعا من التجاهل والإهمال؟

بدأت الأسئلة الروتينية تتراقص حولي كالهنود الحمر، جاعلة مني شعلة اللهب التي تُلهِمها الحماس والطاقة: ماذا يفعل الآن؟ سعيد هو؟ هل انشغل عنك بسواك؟ هل خطرتِ على باله؟ «

شعرت بغضب جنوني، من ذلك النوع الذي يجعل مني ثورا أعمى يركض برعونة نحو القماش الأحمر. كان عمر قماشي الأحمر حينها، أينتظر مني أن أبادره بالسلام مثلا؟ يا لسخرية!

دققت المسامير على صليب الصبر، وانتظرت انتهاء فترة الحجز الاحترازي الذي فرضه علي والدي. عدت إلى الحي الجامعي وشبح عمر يسكنني مع كل نفس.

هواجس كثيرة تقاطرت على مخيلتي بالجملة، خاصة عندما باءت محاولاتي العديدة للاتصال به بالفشل.

لم أتوجه إلى مسكنه، لم أجد تفسيرا لصرامة حلّت عليّ فجأة. فضّلت أن أجاريه وليكن ما يكون. توجهت إلى الكلية صباحا، لم يفاجئني مشهده وهو يرتشف قهوته في المقصف محاطا بالخلان. لكنه وخزني وخزة زلزلت جسدي. كدت أفقد توازني، غير أنني تماسكت، ومشيت نحوه

بهدوء. انتبه المتحلقون حوله لقدومي، فسكن ما كان بينهم من لغط.
ألقيت التحية في تكهرب واضح للأجواء. بعد رد مفتعل من الزملاء، همّ بعضهم بالمغادرة. بينما عدّلت نجوى من جلستها في وضعية تقول إنها لا تنوي النهوض. رمقتني بنظرة مستفزة، وقالت بصوت يشبه الفحيح:

- ألن تباركي لعمر يا ياسمين.
- بكل تأكيد، فقط أخبريني بالمناسبة السعيدة.
- سيغادرنا إلى لندن بعد غد.

ليته أغمي علي، أو صرخت أو حتى ضربتها، لكنني استدرت في مكاني وغادرت دون أن أنطق كلمة واحدة.
أغلقت غرفتي وأجهشت ببكاء متواصل حتى صرت كائنا شاحبا بدون ملامح. أصبح وجهي كرة من فرط الانتفاخ.. شعرت بانغلاق في أنفي فلم أعد أستطيع التنفس إلا عبر فمي الذي شارك بدوره في هذه الملحمة المطيرة.
أغلقت هاتفي وتجاهلت أي طرق على الباب مهما كان مُلحا. اختلطت عليّ الرغبة في الموت مع الرغبة في الانتقام. وتقاطرت أسئلة الزيف والخديعة.
لبثت على هذه الحال إلى أن أصبحت أقفو الغرفة حبوا فقط لأحصل على رشفة ماء. أصابني وَهن وانهيار تام. فتحت عيني فلم ألمح إلا بياضا فتساءلت إن كنت قد فقدت البصر جراء إمعاني البكاء. لكن العمى يصحبه السواد وليس البياض.. جاهدت كي أدرك وضعي ومكاني، وبعد لحظات تبين لي أنني في مستشفى.
كانت أمي تشد على يدي بكلتا يديها، بينما تقف نسرين وهي تتلقف دموعها بمنديل ورقي. أشارت إلي أمي بنظرة متوسلة واضعة أصبعها فوق شفتيها، مانعة إياي من الكلام.
أغمضت عيني مرة أخرى ففتحهما هذه المرة على العيون المتطلعة،

إنهم زملائي الطلبة، بعضهم بالكاد أتذكر اسمه، جاءوا لعيادتي قصد المواساة.

زامنت انتكاستي موعد العطلة الصيفية، مما منحني فرصة للابتعاد عن الجامعة والمدينة التي تحتضنها. لم أعد أستطيع المشي في دروب جمعتني بعمر. كل الأمكنة تصرخ بذكرياتنا معا. ذكريات أصبحت تجثم على صدري وتخنقني خنقا.

لزمت البيت في انتكاسة طالت كل جزء مني، جسدي وصحتي وعلاقتي بمن حولي، ماتت فيّ كل رغبة في الحياة، وباءت كل محاولات أمي وأختي لانتشالي من حفرتي بفشل ذريع.

رنّ الهاتف وظهر اسمه على شاشته، انقبض قلبي وارتعشت يداي. أمسكته بهدوء شحيح، ضغطت على زر الرفض، وشرعت مباشرة في كتابة رسالة قصيرة: (فضلا لا تعاود الاتصال مجددا، انتهى.). لا أعرف لمَ أضفت عبارة 'انتهى' في الختام، وما الذي انتهى؟ أعمري؟ أم أحلامي؟ أم تمثيله البارع؟ وضعت الهاتف جانبا وانهمكت في نوبة من نوبات بكائي الغزيرة التي أشعر براحة لذيذة بعدها، كأنها صحوة دافئة بعد عاصفة قوية باردة.

تقلبت يمينا ويسارا في فراشي الذي ضاق بي كما ضاقت بي جدران هذه الغرفة، بل ضاق بي الكون بكل رحابته. رأيت شعارات القوة والصمود والعزيمة تذوب أمامي كما تذوب ورقة دفتر في لهيب مدفئة محتد. رغبت في الموت. لكن لما قد أموت ليعيش؟ ترنحت واقفة:

- ولم أحصر حياتي بشخص لم يقدرني، أ أقبل على نفسي مثل هذا الهوان؟

وقفت أمام المرآة، أسدلت شعري وبدأت أداعبه بيدي، اخترت الابتسام الآن بدل البكاء الذي كان خياري الأول والأخير. نظرت للمرآة مجددا، بدأت أتجرد من ملابسي وأنا أتفرس في جسدي كأني أراه أول مرة. أصبحت عارية تماما أمام المرآة، همست:

- لا، لن أسلم هذا الجسد لمحرقة الأحزان إكراما لك أيها الحقير، الغد لي، لي وحدي.

أرجعت شعري إلى أمام، ودرت حول نفسي واضعة إحدى يدي فوق خصري. أرسلت للمرآة قبلة في الهواء، ودلفت إلى الحمام كي أغتسل من أدران الذكرى.

-12-

تفاجأت أمي وأختي بصوتي وأنا أتغنى بألحان كاظم الساهر بينما أعد وجبة الفطور، فغرت أختي فمها وهي تقف في باب المطبخ، بينما ابتسمت أمي ابتسامة عريضة قائلة:

- هنيئا لك، لقد اجتزت العاصفة.

انقضت عليّ أختي وهي تشاغبني، وأنا أضحك كطفل لم يختبر من الحياة وَيْلاتها بعد. جلسنا إلى مائدة الإفطار التي أعددتها بعناية. وتجاذبنا أطراف الحديث في مواضيع شتى، كالرياضة والتغذية والفن والإبداع.

شعرت بالرضى، كما لم أشعر به من قبل على هذه الأسرة، أنا وأمي وأختي لسنا في حاجة إلى شخص آخر، اندثرت فكرة الأب الغائب ونفضت عني دور الطفلة الضحية التي حرمت من أبيها. نظرت إلى أمي فقدّرت نعمة أن تكون لي أما مثقفة تشاركني الحديث في الفن والأدب والفلسفة. غمرتني سعادة انعكست على وجهي نورا وإشراقا كما وصفتها أختي. فعلا ما أجمل الشعور بالسكينة.

استأذنت أمي في الخروج متحجّجة بموعد مع صديقة لي، مع علمي أني لا أحتاج حجة للخروج، فهذا ديدن أمي الذي طالما بدا لي غامضا ولا مباليا على رغم من أنه مريح بالنسبة لي، فهو يمنحني مساحة من الحرية والخصوصية تجعلني في غنى عن أي كذب وتلفيق.

أخذت مقعدي في مقهى 'الحافة' وهو مقهى أثير في مدينتي، يطل على البحر مباشرة وتلوح منه الضفة الأخرى حيث يتربع جبل طارق مُغازلا كل مسكون بحلم الهجرة.

استخرجت أوراق مذكرات أمي التي شعرت أني هجرتها دهرا. تمتمت:

- عذرا أيها البحر حان وقت الغوص في الذكريات، أراك لاحقا.

أخذت الورقة التالية وتابعت القراءة:

((ودّعتني فاطمة وهي تشد على يدي بتأثر، لم تعلق ولم تبد رأيا. كانت لغة الصمت تناسب المقام، مقام الخيبة والانكسار.

ها أنا أسير وحيدة بخطى ثقيلة، تارة أشعر أنني أجرّ قدميّ وتارة أخرى لا أكاد أشعر أني أمشي فوق الأرض، انتشر سواد كآبتي كدخان خانق، كل شيء يبدو بشعا، الوجوه والشوارع وحتى الأشجار. شعرت بغربة تجلدني بإمعانٍ وسخرية، وأن مدينتي تتنكر لي، وتدير ظهرها في تمنّع.

سعدت لأن لي وجهة أقصدها، فما أقسى أن تهيم بلا وجهة. نظرت إلى المشردين من رواد الليل، فأدركت أن الغابة تفتح أبوابها معلنة سلطة القوي. أسرعت الخطى نحو المحطة، وما إن أخذت مقعدي في حافلة الركاب حتى تنفست الصعداء.

نظرت إلى مدخل الحي الجامعي، فتراءى لي السواد كزخّات مطر تصبغ كل ما حولي، لا أدري ما الذي آلمني أكثر أغضب أمي وسخطها، أم كرامتي التي ديست بذلك الطرد المهين، أم ورطتي وأنا أقف لا حول لي ولا قوة في تدبر دراهم تكفيني لسد رمقي؟

اتصلت بخالد وكان زميلا لي في الكلية. ألقيت طلبي في وجهه كقذيفة مباشرة، لم أفكر أو أخطط كيف سأفاتحه في الموضوع. فاجئني صوته المشوب بالحبور:

- أنت تأمرين أسماء، هل تريدين ألفا أم ألفين؟

- ألفين؟ لا لا يا خالد حسبك! عن أي ألوف تتحدث، أنا فقط أحتاج مبلغا بسيطا أدبر به أموري ريثما أجد حلا.

- ألف درهم مبلغ بسيط من أجلك أسماء، ثم ما المشكلة؟ يمكنني أن أساعدك، هذا طبعا إن سمحت بإشراكي في مشكلتك الخاصة.

- في الحقيقة يا خالد...

قاطعني في حبوره المعتاد، مثل هذا الكلام لا يكون في الهاتف عزيزتي،

لم لا نلتقي بعد ساعة في مقهى "الرمال الذهبية".
تمتمت قائلة:
- بكل تأكيد.
- أراك بعد ساعة أستاذتي.
أنهيت المكالمة ذاهلة ومتوجسة من عبارات مثل «عزيزتي، ومن أجلك»، لكني طردت هذا العارض مستحضرة ورطتي، ممتنة على اتصالي بخالد، بدل لجوئي اليائس لصديقة شامتة، تتفنن في مغازلة عبارات الرفض المسكوكة.
وصلت إلى المقهى قبل الوقت المحدد، فجلست أستحضر صورة خالد، ذلك الطالب الوافد، الذي يكتنفه غموض براق. عيناه تشعان ذكاءً، يعرف جيدا كيف ينسجم وكيف ينسحب. ثقافته موسوعية، وهو متحدث لبق، لبق جدا. يعرف جيدا كيف يصنع لنفسه صورة لامعة في أعين الأساتذة، ويبلي جيدا في التحصيل الدراسي. أنظر إليه فأراه جنديا منتصب القامة يمضي بخطى واثقة نحو هدفه، وعلى وجهه ابتسامة رضا عميق.
حضر خالد في الموعد تماما، باسم الوجه مزينا بلباقته المعهودة التي تُشعر كل سيدة في حضرته بأنها أميرة أو نبيلة من النبلاء.
صافحني مع انحناءة خفيفة، وجذب كرسيه في أناقة وجلس مقابلا لي.
- ماذا تشرب الأميرة؟
تلعثمت في خجل:
- سبق وشربت عصير برتقال.
- دعك من الطلبات النموذجية، تميزي كوني نفسك، فلديك الكثير من الطاقة.
طأطأت وتوجس يكتم أنفاسي، وأسررت لنفسي: «كل هذا رأيته في عصير برتقال يا خالد، ما بلك بعصير حياتي»
رفعت رأسي بثقة:

- هي السوداء إذن.

- آه اختيار مميز من سيدة، سأشاركك الاختيار بعد إذنك طبعا.

تساءلت كيف للرجال أن يكونوا مبدعين فيما يخص امرأة ليست في متناولهم، متحجرين قساة اتجاه امرأة تنازلت عن نفسها إكراما لهم. رددت بابتسامة مفتعلة:

- بكل تأكيد.

بادر قائلا:

- أولا وقبل أن نفتح أي حديث، ها هي أمانتك.

ناولني ظرفا. شعرت بيدي ترتعشان كأن الشلل قفز عليهما من حيث لا أدري، كابرت كي أمسك الظرف، فلسعني حجمه ما إن أطبقت عليه أصابعي، استنفرت قائلة:

- كم المبلغ الموجود هنا يا خالد؟

- هو ألفي درهم.

- لا لا هذا كثير جدا، لا يمكن أن أقبل هذا المبلغ الكبير كيف سأرده.

انفجر بضحكة كبيرة جعلتني واجمة بدون حراك:

- مبلغ كبير؟؟ والله أضحكتني يا أسماء.

قلت في غضب:

- نعم كبير على الأقل بالنسبة لي.

- اسمعي يا عزيزتي هذا مبلغ تافه، ثم إنك إن تشبثت بعنادك فستجدين نفسك مضطرة لاقتراض مبلغ آخر بعد وقت وجيز.

أغاضني استعمله لعبارة «عزيزتي» الذي لفحني في كرامتي، واستشعرت منه زحفا نحو حدودي الخاصة، فانتفضت قائلة:

- سأعمل وأسدده في أقرب فرصة.

رد فيما يشبه السخرية:

- جميل جميل، دعينا نبدأ بالعمل.

شعرت بالحرارة تجتاح جسدي وبالحنق يسيطر علي، ولعنة الورطة التي قذفت بي جحيم الآخر.

كان ينظر إليّ وكأن ما يراودني من حوار داخلي يُعرض فوق جبهتي كأنها شاشة عرض.

عدل من جلسته، ونظر إليّ مباشرة فتغيرت سحنته كأنه شخص آخر، شخص أكثر نضجا وصرامة:

- أولا أشكرك على الثقة التي منحتني إياها، هذا شيء أقدره كثيرا. ثانيا عليك أن تعلمي أن مثل هذه الثقة تُبنى وتُتعهّد بالرعاية. وأنا من جهتي أعاهدك بأن أكون لك الشخص الذي تريدين، صديقا وافيا كتوما خدوما، بل الأكثر من ذلك مستعد للتضحية بالابتعاد عنك متى رأيت أن الأمر مريح لك.

كنت أنظر إليه في وجل واستغراب، لكن كلماته كانت تمارس عليّ سحرا ما، صديق صدوق خدوم بدون قيد أو شرط. وما الضير في ذلك وأنا طريدة الأهل، بل طريدة الحياة ككل.

مدّ يده مصافحا، فمددت يدي كمن نوم مغناطيسيا. شد على يدي بيده الأخرى فبعث ذلك في جسدي كهرباء استنفرت حواسي، فسحبت يدي بسرعة.

ابتسم في هدوء، وأخرج سيجارة. سألته في استغراب وأنا التي رأيته مرارا يرفض عروضا للتدخين من طلبة زملاء:

- أتدخن يا خالد؟

- أفعل كل شيء ولا أفعل شيء. إذن احك يا شهرزاد.

وكأنني مياه جامحة انهار سدها، هكذا أفرغت ما في جعبتي أمام خالد دون مواراة. تحدثت عن أهلي، عن يوسف عن طفلتي، عن تفكيري في الطلاق.. وهو يستمع إليّ بانتباه شديد.

أنهيت كلامي فنهض وعاد إلى الخلف خطوتين، ضم يداً إليه وأطلق الأخرى، وانحنى تحيةً لي دون أن يبدي أي اهتمام بمن حولنا. تأرجحت

بين الصدمة والخجل واللذة. لأول مرة أجد شخصا يقدر قصة كفاحي ونهوضي من قبر الجهل وتسلق ترابه وصولا إلى هذه الكلية.

أتدرين يا أسماء، عرفت منذ رأيتك أنك إنسانة مميزة، شيء ما فيك كان يصرخ بكونك لا تنتمين لجحافل المبتذلين الذين نضطر لمعايشتهم كل يوم. اسمعيني جيدا يا أميرة، أريدك أن تفخري بنفسك وبإنجازك، وتقدري ما وصلت إليه، وألا تنظري إلى الخلف إلا مستهزئة.. مكانك هو المقدمة، ولا شيء غيرها. انسي الأحلام الآنية الحقيرة، وتطلعي لأحلام كبيرة ملء الأرض وارتفاع السماء. ثقي بي، على قدر أحلامك ستتسع لك الدنيا.

غادرت المقهى أشعر أنني ولدت من جديد. أنا أسماء المكلومة التي رتقت جرحها بيديها، ومضت حافية في صحراء التيه. أنا أسماء، كل الأسماء اجتمعت بي أشهرها سيفا على نوائب الزمن. أنا الأسماء التي لن تكون من اليوم فصاعدا إلا ما أرادت لنفسها، لن يكون لي إلا المجد.))

-13-

آه كم كان وقع هذه الورقة آسرا على قلبي، كأنه بلسم، تمنيت أن يتجسد خالد أمامي صديقا صدوقا خدوما بدون قيد أو شرط. ولأول مرّة منذ بدأت أقرأ هذه المذكرات أغبط أمي على إنسان عرفته في حياتها.

أفقت من سهوي فوجدت أن الأنوار قد أضيئت من حولي، وأن البحر قد توشح بألوان الغروب الشجية.

عدت إلى البيت، قبلت أمي وهي تجلس أمام التلفاز وكأس كبير من القهوة بين يديها يؤنس وحدتها. توجهت نحو غرفتي، لكنني توقفت فجأة واستدرت، جلست بالقرب منها، ابتسمت في وجهي ومدت يدها تمسّد شعري دون أن تنطق بكلمة. بادرتها قائلة:

- أحتاجك أمي.

عدلت من جلستها، ونظرت إلي في اهتمام:

- أنا هنا حبيبتي.

- أشعر بفراغ ما في حياتي، لا أستطيع أن أقبض عليه ولا أن أفهم ماهيته، لكنه موجود. ربما هي الفجوة التي تركتها رصاصة عمر، وقبلها رصاصة والدي الذي يستمتع بحضن امرأة أخرى وأبناء آخرين. لكنني ظننت أنني تجاوزت الآمر، تغلبت على ذكرى عمر، واستغنيت بك وبأختي عن وجود والدي. فما سر هذا الشعور يا أمي؟

ضمتني إليها بحنان، وجعلت رأسي فوق صدرها، وخلّلت شعري بأصابعها، تماما كما كانت تفعل حين كنت طفلة صغيرة، أشغل مكان أبي في سريرها بينما يُمضي هو ليلته في أحضان المراقص والعاهرات.

- حبيبتي الغالية، إنه فراغ الحب الذي لن يملأه شيء سواه. الفقد

سُمٌّ عبر جرعات، موت بطيء ممعن في التعذيب. لكن فقدك أنت كان اختيارا وليس لعنة أقدار. عمر اختار لندن، كيف ومتى؟ أسئلة تؤكد أنك كنت تعيشين مسرحية متقنة التشخيص.

لقد حدد هدفه وسعى إليه، لقد اختار.. اختار أن يتركك، وهذا سبب كاف يجعلك تختارين المضي قدما، لأنه ببساطة لم يكن حبا. حبك الحقيقي مازال في انتظارك حبيبتي، وما عليك إلا أن تجديه.

انسابت دموع اجتهدت في كتمها، ولُذت بصمت مؤلم. لكنني في نفس الوقت سعدت لهذه المحادثة التي جعلتني أشعر بأنني أكثر قربا من أمي.

رنّ هاتفي فجأة، فتطلعت إلى شاشته متسائلة:

- من يا ترى يكلمني في مثل هذا الوقت؟

- أجيبي حبيبتي، لعله خير.

فتحت الخط، فانطلق صوت زميلتي لي في الكلية:

- مرحبا ياسمين، أنا كوثر، كيف حالك عزيزتي.

- مرحبا كوثر، أنا بخير، عساك في أفضل حال.

- في أفضل حال يا ياسمين. أردت أن أبشرك بظهور النتائج، وقد كنت متألقة، مبارك أيتها العبقرية. هل أصور لك النتائج وأرسلها لك؟

- أكيد أكيد، شكرا جزيلا كوثر، لطف منك.

- لا عليك صديقتي، على الرحب والسعة، ومبارك مرة أخرى.

أسعدني الخبر كثيرا، أخيرا ظهرت النتائج النهائية، وسأحصل على شهادتي. سأحرق الماضي وأنثره رمادا في سمائي الواسعة. سأصنع حياة جديدة، وحبا جديدا.

-14-

ها هو ذا الليل الذي تغنّى به الشعراء والعشاق والمطربون، ها هو يجثم على صدري ضيفا ثقيلا. قررت أن أخفف وطأة هذا الثقل بالإبحار في عوالم مذكرات أمي التي أدمنها.

هممت بإخراجها من مخبئها، فإذا بي أسمع طرقا خفيفا على الباب وصوت أمي تطلب الإذن بالدخول.

رحبت بحبور:

- تفضلي يا غاليتي، لا تحتاجين إذنا.

ابتسمت في رقة، ثم أمسكت بيدي ونظرت في عيني مباشرة:

- حبيبتي ياسمين، لقد مررتِ بفترة عصيبة، كنت أدعو خلالها الله أن تخرجي منها سالمة وتستردي عافيتك. لذا سمحت لنفسي بتأجيل إخبارك بأمر معين. وها أنا وقد استعدت عافيتك أفاتحك في الأمر. فقط عديني ألا تنتكسي، وأن تكوني قوية.

- أمي، لقد أخفتني، ما الذي حدث؟؟

استخرجت مجموعة أظرفة من جيبها ووضعتها بين يدي:

- هذه رسائل كانت تصل تباعا منذ انفصالك عن عمر، كما هو واضح من خلال الطابع البريدي والعنوان المثبت عليها، فهي من خارج البلاد، إنها من لندن، واسم عمر كما ترين واضح كل الوضوح.

شعرت بحرارة تسري في جسدي، وتجمد في أطرافي.. تعرّقت يداي وأنا واجمة أحدق في وجه أمي.

رجَّتني فزعة:

- ياسمين ياسمين ما الذي أصابك حبيبتي، كان عليّ أن أتخلص منها بدل أن أسلمك بيدي إلى براثين العذاب مرة أخرى.

أيقظتني جملتها الأخيرة من سهومي، فافتعلت ابتسامة عريضة، وقبلت يديها قائلة:

- أتدرين أني أقدرك كثيرا، كلما تعرفت عليك أكثر، زاد تقديري لك. أشكرك لأنك لم تُتلفي هذه الرسائل، أشكرك لأنك تخيّرت الوقت المناسب مراعاة لحالتي، أشكرك على أشياء أعمق من أقولها.

أمي الحبيبة، كوني متأكدة، أنا مستعدة لقراءتها. وأعدك أني سأكون بخير.

ككل مرة، تحمّلت أمي بالصمت، وصامتة انسحبت، لتتركني مع كومة الرسائل مبعثرة فوق سريري.

ها هي أوراق جديدة تزاحم مذكرات أمي، بل وتستحوذ على اهتمامي. نحّيت مذكرات أمي جانبا، وأخذت الرسائل بين يدي، قلبتها وشممتها.. افتضضت الرسالة الأولى:

«العزيزة ياسمين، أعلم أنك طلبت ألا أتصل بك نهائيا، وهذا حقك، لكني سمحت لنفسي بأن أتواصل معك عبر هذه الرسائل، في محاولة يائسة للتخلص من غصة تخنقني كلما لاح شبحك في مخيلتي.

سأضع أمامك الحقيقة عارية، فلا جدوى من أن تتخبطي بين روايات عدة يتوجها خذلاني لك. اعلمي أني أحببتك، وما كذبت عليك بشأن حبي لك أبدا. واعلمي أني عشت معك لحظاتنا بجوارحي كلها، عشت معك الحب والسعادة كما ينبغي أن يكون. لكن لوثة أصابتني، داء أومن أنه استشرى في جسد العالم أجمع، إنها الحياة المزدوجة من خلال مواقع التواصل الاجتماعي. يبدأ الأمر كحب استطلاع ويتطور رويدا رويدا ليصير إدمانا لا فكاك منه. كذلك كان الأمر مع كاثرين، تعرفت عليها داخل أسوار العالم الافتراضي، من خلال تعليق لي على موضوع العنصرية، أبدت كاثرين إعجابها بوجهة نظري، وبادرتني بالكلام..

بعدها تطورت علاقتنا حتى أصبحنا نتكلم يوميا بلا انقطاع.

أدرك أنه من الصعب عليك معرفة هذه التفاصيل، لكنني وعدتك بالحقيقة، والحقيقة عادة ما تكون مؤلمة. ليس لك وحدك يا ياسمين بل لي أيضا. صدقي أو لا تصدقي أن الألم يعتصر قلبي، شعرت أن دوامة ابتلعتني بسرعة مفرطة لم تسمح لي أن أفكر أو أختار. إني لا أنكر أني مذنب، نعم مذنب لأني تفاعلت معها وأبديت لها الحب، وما كان علي أن أفعل ذلك في حضرة علاقتنا الجميلة، لكن شيئا من الأنانية سيطر علي، فكرتُ في مستقبلي في لندن وقارنته بمستقبل طالب كادح في هذا البلد السعيد، مستقبل حالك السواد الأرجح أنه سيقتل علاقتنا ببطء ونحن نصارع من أجل الحصول على عيش كريم.

أغرتني كاثرين بعالم جديد، أصبحت لا أطيق صبرا كي أترك هذه الأرض خلفي، وأنطلق نحو المستقبل. لكني كنت جبانا، ونذلا أيضا، جبانا لأني لم أملك الجرأة على مصارحتك بالطريق الجديدة التي اخترته لنفسي. ونذلا لأني كنت ألتقيك كل يوم، وأعرف جيدا كيف أُبدي السكينة والحب كأن شيئا لم يكن، كنت أمثل، تبا، نعم أمثل أني بخير وأننا نمضي قُدما وأننا نتعهد حبنا بالرعاية كوردة نادرة.

لا تظني أني إنسان منعدم الضمير، كنت أعاني أيضا. وأسئلة كثيرة تقض مضجعي، هل أهجر كاثرين وأهجر حلمي في النجاة من البطالة والفقر؟ هل أصارحك بالموضوع؟ وكيف سيكون رد فعلك؟ بقيت الأسئلة تجلدني وتمعن في تعذيبي ورحى الأيام تدور بسرعة جنونية إلى أن جاء اليوم الموعود. تهربت من الاختيار ماطلت وتحايلت، لكن كل هذا في حد ذاته كان اختيارا. ولا أملك الآن أيتها الأثيرة إلا أن أطلب منك الصفح والسماح.

سأراسلك باستمرار أحكي لك عن أحوالي، وسأكون سعيدا إن تمكنت من تخطي ما كان ومراسلتي بأخبارك.»

سامحني أرجوك

أنهيت قراءة الرسالة ويداي ترتعشان، وقد انقض على جسدي برد شديد. شعرت بدفء دموعي وهي تنهمر في خط غير منقطع. جمعت الرسائل وأخذتها إلى المطبخ. تبعتني أمي في ترقب دون أن تنبس بكلمة. وبهدوء شديد أشعلت النار في تلك الرسائل وهمست: «فعلا حقيقة عارية، ووقاحة سادية».

احترقت الرسائل تماما، فرسمت ابتسامة على وجهي، مشيت نحو أمي بتمهل وعانقتها عناقا طويلا منحني راحة لذيذة. عدت إلى غرفتي، استسلمت للنوم وأنا أضرب موعدا صباحيا مع مقهاي المفضل "مقهى الحافة" أنا ومذكرات أمي المثيرة.

-15-

آه من هذا المكان الأثير "مقهى الحافة" يتربع على هضبة عالية تواجه مباشرة الضفة الأخرى حيث يبدو مضيق جبل طارق واضحا كصفحة مفتوحة. يحمل هذا المكان الكثير من السحر الناتج عن تزاوجٍ بين روعة الطبيعة وعراقة التاريخ.

يستقطب كل النفوس التائهة التي تتوق إلى السكينة والرشف من منابع الجمال الربّاني، فيحتضن سواحا أجانب وزوارا وافدين من مدن أخرى، إنه أيضا ملجأ للشباب التوّاق إلى الهجرة نحو أرض الأحلام، فتجده ساهما متأملا، ربما سبقته روحه إلى المكان المرتجى فشيدت وهدمت، وما تلبث أن تصفعه رياح موشّات بعبق بحري، تعيده إلى أرض الواقع.

منذ فتح هذا المقهى أبوابه سنة 1921 وهو قِبلة للأدباء والسياسيين والسفراء والفنانين والمشاهير وكذا العاطلين والحالمين وعامة الناس. فيه جلس محمد شكري، الطاهر بنجلون والكاتب الأمريكي بول بولز ووينستون تشيرتيل وكوفي عنان وغيرهم من الذين مارس عليهم سحره واعتبروه هدية الطبيعة. فحين زاره الكاتب الإسباني لويس إدواردو قال عنه: «مقهى الحافة جنة للباحثين عن التأمل.

وفي غمرة السحر والدهشة، تتبختر النوارس في سرب يزين السماء الممتدة. فكيف لا يكون لي هذا مكانا أثيرا؟ وفي كل مرة أزوره يغسل عني همومي بزرقته الآسرة، ولا أغادره إلا وقد تخففت من أدران الذكريات المضنية، وملأت رئتيَّ بهواء جديد منعش يبعث في أوصالي رغبة في الحياة ودفقة من الأمل والتطلع نحو الأفضل.

أخذت كأس الشاي المنعنع وأمسكته بكلتا يداي، قربته من أنفي

أنتشي برائحة النعناع النفاذة، أخذت رشفتي ووضعته جنبا بعناية، إنه موعد المذكرات، لِنَر أسماء وقد سكنها الأمل والحماس بعد تشجيعها من طرف خالد، لنر هل صمدت وتجلدت أمام سياط الواقع، أم سقطت مستسلمة منهكة القوى. فتحت الورقة وبدأت أقرأ:

((بثَّ خالد فيَّ شعورا لم أعهده من قبل، إنه أول رجل يُثَمّن معاناتي وتجربتي، بل وينْحني إجلالا لي. رأيته شخصيا راقيا مميزا لا نظير له.

كان خالد يخفي إعجابه في تفتحه، وحبه في كلمات الدعم والتشجيع، غير أنه لم يصرّح قط ولم يُبد رغبة في علاقة واضحة، رغم أني كنت مستعدة لتقبله كشخص أثير في حياتي.

بقيت علاقتنا تتأرجح بين صداقة عميقة وأخوة متبادلة، ركنت إليه، هو الذي جعلني أومن أن الصداقة مع الجنس الآخر ممكنة بل وأفضل من صداقة الإناث اللواتي لا يتوانين عن اللسع في أول فرصة.

كنا نجلس سويا في المكتبة، وقد نعرج على المقصف.. نتحدث في الحياة، ونتناقش في مواضيع متعددة، ببساطة أصبح جزء لا يتجزأ من حياتي.

بعد حادثة الطرد بمدة ليست بالقصيرة، زرت منزلنا بتشجيع من خالد، كنت مضطرة لتقبيل الأيدي والرؤوس، وطلب العفو والمغفرة، وإبداء التوبة أيضا. قمت بتمثيل الطقوس على مضض، تحت أعين الجمهور الذي يتكون من إخوتي. كنت أصك أسناني حنقا. هرولت خارجا وتنفست بعمق كأنني كنت في تجربة غطس طالت أكثر من اللازم. وهرعت إلى المحطة لأعود إلى عالم الدراسة والهناء.

في الصباح الموالي قصدت الكلية، وعرّجت على المقصف قصد أخذ قهوتي الصباحية التي اعتبرها إدماني المباح. استغرقت في أحلام اليقظة، أبني صروحا وأشيد وأهدم كما أشاء.

بينما أسير بخطى حثيثة نحو المكتبة، راودني دوار خفيف وشعور بأن ما يحدث الآن يتكرر.

بياض ثم بياض فرائحة مألوفة، رائحة الموت البارد والألم.. وحدها لمسة دافئة انتشلتني من سطوة الدهشة. شعرت بأصابع تتحسس نبضي، رفعت عيني المتسائلة دون أن أنبس بكلمة.

- كيف حالك الآن؟

- بخير.

- ستشعرين ببعض الصداع، وهذا شيء طبيعي بعد الإغماء الذي تعرضت له.

قلت باستغراب:

- إغماء؟؟

- نعم آنستي، أغمي عليك فنقلت إلى هذا المستشفى. لا بأس عليك، ستكونين بخير، ويمكنك المغادرة حالما تشعرين أنك قادرة على ذلك.

- فهمت، شكرا جزيلا دكتور.

ابتسم ابتسامة عريضة:

- عفوا، هذا واجبي.

بقيت في الغرفة أعانق البرد، وأتربص بالأصوات القادمة من الرواق. حاولت النهوض فهجم علي صداع عنيف جعلني أمسك رأسي بين يدي واضغط عليه بقوة. بقيت أغازل الألم لمدة، أشد على رأسي وأغمض عيني كلما أصر عليّ بالحضور، وأتنفس ببطء كلما قرر منحي فسحة من تنكيله.

نهضت بعد مدة وجيزة أترنح والصداع مصر على ملازمتي، توجهت إلى المخرج والأشياء تتهادى من حولي، الأصوات صدى ذات رنين حاد يخترق رأسي المكلوم.

كدت أهوي أرضا لولا أن تلقفتني يد من الخلف. نظرت إلى اليد، إنها نفس الأصابع المزينة بشعيرات خفيفة تشي برجولة متدفقة.

- هل أنت بخير؟

- بخير، شكرا دكتور.

- ألا يوجد أحد يرافقك للمنزل؟
- لا يوجد أحد ولا يوجد منزل.
- ماذا تقصدين؟
- أقصد أني أقطن بالحي الجامعي، وليس لي أهل بهذه المدينة.
- آه فهمت، إذن اسمحي لي بإيصالك إلى الحي الجامعي.
نظرت له باستسلام، سأكون ممتنة دكتور. ابتسم برضا:
- اسمي أحمد، ولا أريد ألقابا.
- فهمت سيد أحمد.
- يا الله أشعر بأني عجوز هرم، لا أريد تسيدا ولا تمجيدا، فقط أحمد. قوليها من أجلي.
همست بكلمة "أحمد" في وجل، وأنا أستشعر انفلاتا في جادة الرسميات.
- جميل يا أسماء، واعذريني لأني انتهكت خصوصيتك وتعرفت على اسمك من خلال بطاقتك الشخصية الموجودة في حقيبتك، بعدما أحضرتك سيارة الإسعاف.
- لا بأس، من الضروري التعرف على هوية المريض، من أجل الإجراءات الإدارية.
اكتفى بابتسامته العريضة، وجذبني برفق متوجها نحو سيارته. تأكد من تموضعي في مقعدي بطريقة مريحة، تولى ربط حزام الأمان، تفقد مسند الرأس. كان يتحرك بنشاط وحيوية أفتقدهما، وأنا أراقب حركاته وسكناته في ادعاء للمبالاة. شكرته مجددا على جميل الاعتناء، وقد استعملت اسمه مجردا هذه المرة، بالرغم من أن لفظه بتلك الطريقة خلف وخزا خفيفا في صدري، كأنه إيذان بانهيار جدار التكلف والرسمية، ودعوة إلى الألفة والمودة.
كان حديثه انسيابيا كالماء الذي يحفر طريقه بعمق دون أي ضجيج أو فوضى، وجدتني أركن له وأستريح لحضوره المميز، وكادت البسمة

ترتسم على وجهي، لكن لافتة الحي الجامعي أجهضتها قبل أن ترى النور. عرفت أني سأترجل من هذه السيارة ولن أرى هذا الإنسان المميز. هممت بفتح الباب، فاستوقفني قائلا:

- هل ترغبين أن نكمل حديثنا لاحقا؟

نظرت إلى عينيه مباشرة، أسبح في لونهما البني الفاتح. نظرت نظرة تجمع التشكيك والثقة، الرفض والقبول، ونكّست رأسي في صمت.

شعرت أنه قرأ أفكاري وتمثّل نظرتي، عدل من جلسته قائلا:

- لا ترميني بالتسرع أو الطيش، أو حتى أني رأيت فيك فتاة تنفق عمرها في اللهو.. لا والله. اعلمي أني ترددت في طلب التعرف عليك، وفي نهاية الأمر قررت أن أصدع بطلبي. أتدرين لماذا؟ لأن الأرواح جنود مجندة، منها من ائتلف، ومنها من اختلف، وقد لمست فيك إنسانة متميزة أسرني حديثنا بالرغم من قصره، وشعرت نحوك بالألفة والسكينة. فلك أن تقبلي، ولك أن تترجّلي من السيارة وتغادري للأبد.

رفعت عيني إليه بعد صمت بدا لي أنه امتد دهرا، دقات قلبي تتسارع والنطق بالحروف صار مشقة تعجز شفتاي عن القيام بها. قلت بخجل:

- أختار أن أراك مرة أخرى.

تبادلنا أرقام الهاتف. ورحلت وقد شفيت تماما من الصداع ومن الذكريات، أتطلع إلى روح تضمني، أنا طريدة المكان والخلان.))

-16-

حان وقت الغروب، وحان معه موعد عودتي إلى البيت، أعجبتني قصة أسماء وأحمد، أو بالأحرى أمي وأحمد. لم أشعر بالسوء اتجاهها، هل هو تواطؤ مني بعد صفعة عمر.

غمرني شعور داخلي بالبهجة، رغبة في أن أصرخ: «نعم يا حبيبتي، انفضي عنك أنقاض يوسف، وافتحي ذراعيك للحياة، ألا مرحبا بك يا أحمد.»

عدت إلى المنزل والبهجة تملأ وجهي، أثرت انتباه والدتي، لكني داهمتها قبل أن تستفسر.

- علينا أن نخرج معا يا أمي، بل أن نسافر. أريد أن نستمتع بحياتنا أن نبتسم نضحك أن نعيش.. ما رأيك أيتها الجميلة.

تفتح وجه أمي كوردة رواها الغيث بعد جفاف:

- الحياة كلها لنا، المجد للمرأة المستقلة.

ضحكت بهستيرية قائلة:

- نعم أيتها المناضلة، كأنك كنت تنتظرين مخلصا يخرجك من قمقمك.

توالت خرجاتنا معا، كنا نستغني عن نسرين التي وصفت طيشنا بالمراهقة المتأخرة. فلم تشاركنا هذه الحالة التفاؤلية التي سكنتنا، كانت تنظر لنا شزرا ونحن نقوم بطقوسنا لمعانقة الحياة، فأستلذ إغاظتها بالتراقص على أنغام موسيقى صاخبة، تنفض عني ما التصق بي من غبار الحزن والكآبة.

توطدت علاقتي بأمي، وهذا منحني سلاما داخليا من نوع خاص. انغمسنا في السفر وحضور الندوات وفتح النقاشات، حتى أنها سرقتني

منها، من أسماء التي تعيش في المذكرات.

أما نسرين فلم أتفق معها منذ الصغر، لكن الأمر استفحل مع أفكارها المنغلقة المحدودة، وانفتاحي وتطلعي المستمر. هي ترفض أي مناقشة للمقدس أو العرف أو العادة، تراها مسلمات يجب علينا الإذعان لها شئنا أم أبينا. لطالما أغضتها عند حديثي عن تحجر العقليات ورفض التفكير المنغلق. خاصة عندما يتعلق الأمر بالدين. كنت أحاصرها بأسئلة كثيرة، فتدعي أن الدين فوق الإدراك، وأن هناك أشياء انفرد الله تعالى بمعرفتها، فلا أكف عن التساؤل حتى تنفجر في وجهي، ليأتي صوت أمي إيذانا بنهاية المناقشة.

نحن مختلفتان، وهذا شيء تعلمت تقبله منذ الصغر، لكن أفكارها الرجعية، تقصر عن إدراكي. كيف لشابة في مقتبل العمر، بل تصغرني سنا، أن تختار تعطيل العقل، والاستسلام للعرف كيفما كان؟ كيف أناقش إنسانة تنظر لنفسها بدونية مقارنة مع الرجل، بدعوى أن في ذلك حكمة من الله يجب علينا تقبلها دون تجرؤ على التساؤل أو حتى التفكير؟

"أنا امرأة، أنثى، دوري أن أخدم زوجي وأربي أولادي. هكذا أراد لي الله" قولها هذا كان يستفزني إلى أبعد حدود، لكن أمي كانت تحول بيننا تجنبا لعاصفة قد تنقلب عداء. تضمنا بهدوء، وتحثنا على تقبل الاختلاف، والتحلي بالاحترام.

نسرين كانت الغمامة التي تحجب عني نور وجمال البيت، في المقابل وجدت في أمي ما عوضني عن الفجوة التي خلفتها أختي. أنظر إليها وأتأمل قسمات وجهها الهادئة وأستغرب هذا الذكاء الذي يستطيع أن يجمع بين قطبين متناقضين، ويمارس عليهما أمومته واحتوائه بشكل عجيب. تمنيت أن أمتلك موهبتها، موهبة نحتتها الأيام بإزميل من ألم.

-17-

كان المنزل وطني الصغير، بكل تفاصيله وما احتوى من ذكريات. في المقابل أصبحت الكلية وطني الثاني، لكن هذا الفضاء اكتسى حلة جديدة، حين صيرتُه جسرا من جسور تحقيقي لذاتي. أصابتني شراهة التحصيل، أستمتع بما أدرسه، وأرغب في المزيد، الذي لا يشبعه إلا زياراتي المنتظمة للمكتبة.

كنت أحث الخطى إلى المكتبة، وذهني مشغول بجدولة زمنية لقراءة الكتب المستعارة. فجأة استوقفني أستاذي وقد زين وجهه بابتسامة عريضة:

- أحيي فيك مثابرتك ياسمين.

- شكرا أستاذي العزيز، هذا بفضل توجيهكم وجميل اعتنائكم.

- أعرف جيدا الحدود بين توجيهنا ومجهودك الشخصي.

ابتسمت في خجل، وودعته بأدب وانصرفت.

عدت إلى البيت وفرحة طفولية تغمرني، أخبرت أمي بأن الأستاذ استوقفني وأشاد بمجهودي. لكنها فاجأتني بقولها: «فقط كوني حذرة!» فغرت فمي دهشةً من رد فعلها، وأنا التي كنت أتطلع لتثمين لهذه الشهادة.

- أمي! كيف تقولين هذا؟ إنه أستاذي، بل ورجل متقدم في العمر.

- ياسمين، لا تتركي فرصة للزمن ليلقنك دروسه. ولا تلقِ بنفسك فريسة للظروف والأقدار. لا تستسلمي للتيار، كوني أنت التيار.

استهجنت هذا الرد المبالغ فيه من أمي، ووصفتها بسوء النية، ولولا ما تمليه حدود الأدب واللياقة لوصفتها بالتفكير المريض.

توجهت متأففة إلى غرفتي، ألقيت جسدي على السرير وقررت أن أبادر بالهروب قبل أن تنقض عليّ سياط الماضي ومخاوف المستقبل.

استعدت صورة أسماء وهي تودع أحمد على مشارف باب الحي الجامعي، كأني أشاهد فيلما رومانسيا بالأبيض والأسود. هي عادة الأبناء أن ينسبوا آبائهم إلى العصور الغابرة. على الرغم من أن أمي تبدو حاليا امرأة فتية كاملة الجمال. تثير دائما انتباه ودهشة المعارف والأصدقاء فهي أقرب إلى صورة صديقتي من أمي. هي امرأة جمعت بين رباطة الجأش والهدوء، والرقي والأناقة. صمتها يزينها بغموض برّاق، وبسمتها الهادئة التي تلي نظرتها الثاقبة تُرْدي الآخر مستسلما لسطوتها.

استخرجت الورقة وشرعت في القراءة:

((كان أحمد بلسما سرى في جسدي فأنعش قلبي، وردّ روحي. منذ دخلت غرفتي وعيناي لم تفارقا شاشة الهاتف المحمول تربصا بأي وميض أو اهتزاز، كأني أخشى ألا يتصل بي مرّة أخرى. ويصير ومضة أمل ابتلعها ظلام الواقع الدامس.

اختلج قلبي بين أضلعي وأنا أرى اسمه يلمع على الشاشة، تأملته حتى كدت أفوّت الرد. أجبت فيما يشبه الهمس:

- مرحبا.

- أهلا بك، اتصلت لأطمئن عليك. أكلُّ شيء بخير؟

- نعم في أفضل حال.

- جيد، آمل ألا يكون الإغماء قد خلف لك مضاعفات.

همست لنفسي أي مضاعفات وقد حقنت بك أيها البلسم. أعادني صوته:

- علام هذا الصمت؟ أتشعرين بألم ما؟

- لا لا أبدا، أردت أن أعبر لك عن امتناني.

- وأنا أردت أن أعبر عن إعجابي.

لم أجب واكتفيت بالصمت، علق:

- أعتذر إن أزعجك ما قلت.

- لا عليك.

تواطأنا على الصمت لفترة فبادر:

- أسماء، أخبرتني أنك ترغبين في رؤيتي مجددا.

- صحيح.

- ما رأيك أن نتشارك غدا وجبة الغذاء في مكان مميز، أثق أنه سيروقك.

- موافقة.

قلتها بهدوء مصطنع، وأنا أكاد أصرخ فرحا، بالتأكيد موافقة، بكل تأكيد.

- ليلتك سعيدة، ارتاحي من أجلي.

- ليلتك سعيدة.

كان لبقا، خفيف الظل، يجيد غزل الكلمات وتوشيتها ليفتنني حضوره المميز. استغربت من هذه الألفة التي تولدت بيني وبين شخص جمعتني به الصدفة. شخص بعيد عن عالم الفلسفة أو حتى الأدب. لكنه كان مثقفا مطلعا شغوفا بالمعرفة، وقد أحببت هذا فيه.

وعدني أن يأخذني إلى مكان سيعجبني، وقد وفى بوعده. مطعم بحري يرتفع شامخا على الأبيض المتوسط، لا يحول بيننا وبينه إلا حائط زجاجي ضخم يقدم لنا رؤية واضحة أخاذة.

أذهلني حضوره المميز وأغناني عن كل مغريات المائدة الرائعة التي كانت أمامنا... كنت في سعادة لم أشعر لها مثيلا. تأبطت ذراعه وانتقلنا إلى مقهى لا يقل بهاء عن سابقه.

لكن هاجسا كان يكدر عليّ صفوي ويخزني وخزات حادة في قلبي. استشعر أحمد ذلك فحاول مرارا أن يشاركني خواطري، لكن من أين أبدأ؟ كيف أخبره أني أم لطفلة؟ وأني لم أحصل على طلاقي بعد؟ وهل إخفاء الأمر حل ناجح؟ سيعلم عاجلا أم أجلا، ويتهمني بالكذب والخداع.

استجمعت طاقتي وطلبت من أحمد أن يقدر صراحتي، وله أن يتقبلني كما أنا أو يرفضني.. أظهر تفهما وطلب مني أن أحكي له قصتي ووعدني أنه سيتقبل حياتي كيفما كانت. شجعني هذا أن أكون صريحة معه وأن أحكي له حياتي كما هي بدون كذب أو تلفيق.

استمع باهتمام، ولم يكن أقل من خالد تقديرا وإشادة بصنيعي، لكنه عبّر عن استيائه من استمراري على ذمة يوسف، فوعدته أن أسوي الأمر في أقرب فرصة..

-18-

فجاءت يوسف باتصالي على غير العادة، أجاب في تبرم:

- نعم ماذا تريدين؟

- الطلاق.

صمت لبرهة، ثم أجاب:

- كما تريدين، لكن بشرط أن تتنازلي عن جميع حقوقك المالية..

قاطعته لا أريد مالك، أريد ابنتي فحسب.

- هي لك، بكل سرور.

ضربنا موعدا لنلتقي في محكمة الأسرة، وقد وفّى بوعده لأول مرة، وحضر في الساعة المتفق عليها. لم نتناقش، ولا تبادلنا اتهامات.. بالكاد حدّث أحدنا الآخر.

قمنا بالإجراءات اللازمة، ومثلنا أمام القاضي، وبعد محاولة الصلح التي يمليها عليه الواجب. وافق على الطلاق. وكم كانت فرحتي كبيرة وأنا أحصل على الوثيقة التي تفصل بيني وبين ذلك المخلوق. شعرت بأنني حصلت على وثيقة الاستقلال، حياتي ملكي الآن.

اتصلت بأحمد مباشرة وأعلمته بالخبر السعيد، فبادر فورا بضرب موعد للاحتفاء بهذه المناسبة السعيدة.

قبل الموعد بوقت لا بأس به، اخترت أن أتنزه وحيدة، أردت أن أناجي نفسي، وأرتب أفكاري. ومن كان ليتربع على عرش أفكاري سوى أحمد. عجبت من السلاسة التي دخل بها حياتي بل وأصبح جزء لا يتجزأ منها. أعجبت بشخصه، على الرغم من أنه ينتمي إلى مجال بعيد عن مجالي. لكن هل سيشكل ذلك عائقا؟ هل ستندثر حلاوة البداية لنصطدم

بجدار الضجر وعدم التواصل. كيف لعالم الخلايا والمشارط أن يتلاءم مع عالم التفكر والتدبر. آه كم أخشى بريق البدايات الخدّاع.

لكنني أحببته، وهو يبادلني نفس الشعور، فلم أسمح لهواجسي أن تسلبني عطيّة إلهية أستحقها بعدما رأيت من ويل وجحيم؟

ألقيت عني كل خاطر يمكن أن ينغص لحظتي، وانطلقت كطفلة سعيدة نحو فارسي الوسيم.

استقبلني بابتسامة أمّ تستقبل ابنها العائد من حرب ضروس، جذبني من يدي وضمني وأنا في دهشة.. رمقتنا أعين الجالسين شزرا. أخذت مكاني قبالته فأمسك يدي وبدأ يتأملني بهدوء.. أ لتحرري من براثين رجل آخر كل هذا الوقع عليك يا أحمد؟

ما زال يمسك يدي، أخذهما برفق وقربهما من وجهه حتى شعرت بأنفاسه فوق جلدي، وضع قبلة عليهما ونظر نحوي، هذه أسماء التي أريد، هنيئا إنها أول خطوة نحو دفن الماضي، وبدأ الحياة الجديدة التي تستحقينها.

كأنه حقنني بينبوع الأمل، فتفتّحت وردة ندية تسرُّ الناظرين. ألقيت عليه سؤلا وقد جرفتنا أمواج الأحلام الوردية. سؤال من النوع الذي يستجلب صمت القبور:

- أسبق لك أن ارتبطت يا أحمد؟

- لا أظنه موضوعا مناسبا لمقامنا هذا، ألا توافقيني الرأي؟

- نحن معا الآن، ولا أحد يحاسب الآخر عن الماضي. أنا أنشد علاقة مبنية على وضوح لا غير.

صمت لبرهة وقد جاريته في صمته.. صمت ناطق، يقول إن له قصة مع امرأة أخرى. لكن كيف أحاسبه وأنا الخارجة للتو من حالة طلاق. لم أنبس بحرف، وتركت له حرية الكلام أو الإعراض، على رغم من أن كل حواسي كانت متحفزة لأول حرف سيخرج من فمه.

- نعم، لقد سبق وخطبت فتاة كانت تدرس معي.

- ما الذي حصل؟ أين هي الآن؟
- ببساطة لم نتوافق، ولم أشعر بالحب اتجاهها.
طأطأت رأسي، أتذوق ألم الخنجر الذي اجتاح صدري:
- هل لي أن أعرف اسمها؟
- أفضل ألا نتحدث عن الأمر. دعينا لحبنا، لمستقبلنا.
رسمت على وجهي ابتسامة استخرجتها بصعوبة. فهمَّ واقفا:
- ما رأيك بمدينة الملاهي؟
- أحتاجها فعلا.

-19-

أنت من يضخ الدم في العروق..

أنت من يأذن للشمس بالشروق..

أحببته بنهَم.. بإدمان، صار ملاكي الحارس الذي لا يفارقني. صباحاتي تشرق على وجهه، ويتربع بدْرا على سماء سمري في ليله.

أحسُّني طفلة تتلقى رعاية خاصة، رضيعةً تستلذ ثدي الحنان. تذوقت معنى السعادة، فصار أهلي ووطني، صار الحياة بالنسبة لي.

ظهرت معالم التغيير عليّ بشكل واضح، إنه غيث السعادة التي روى أراضيّ القاحلة فانبثت زهرا مختلفا ألوانه.

كنت في وحدتي المحبوبة أغازل فنجان قهوتي بمقصف الكلية، تفاجأت بخالد يكسر جدار الخصوصية باقتحام عصبي. سحب الكرسي دون إلقاء السلام ونظر إلي قائلا:

- هنيئا للوسيم بك.

شعرت بحرارة تسري في جسدي، وكأني قد ضبطت متلبسة بجريمة، فأجبت بانفعال:

- ماذا تقصد يا خالد؟

- لا داعي للإنكار يا أسماء، هو وسيم ويبدو أنه أسر قلبك. لكن احذري أن يستغلك.

- ما هذه اللهجة يا خالد؟ ثم متى نصَّبت نفسك وصياً علي؟

صفعه سؤالي الأخير فتشنجت ملامحه، وهمّ بالوقوف قائلا:

- معك حق، أنت حرة.

انسحب خالد مخلفا وراءه وخزات انتشرت في أنحاء جسدي كنار في

هشيم. فهرعت إلى هاتفي أو بالأحرى إلى صوت أحمد لكي يمنحني جرعتي من الأمان.

وأنا أهمُّ بمغادرة الكلية شعرت بيد تلامس كتفي برفق، ققفزت من مكاني مستنفرة. كان خالد وقد افتعل ابتسامة ركبها على وجهه. بادرني قائلا:

- أريد أن أعتذر منك.

قاطعته قائلة:

- لم يحصل شيء يستدعي الاعتذار.

- بل حصل. اسمحي لي أن أقدم لك فنجان قهوة.

تلعثمت في خجل وقد احمرت وجنتاي:

- ربما لاحقا، لدي التزام بعد قليل.

- آه فهمت، الوسيم سيغضب إن عرف بمرافقتك لأحد غيره.

لم أنبس بكلمة، شعرت أنه يصك أسنانه غيضا. فجأة زمجر:

- هل تحبينه؟ أقصد هو هل يحبك؟ هل يحفظك أمانة غالية، أم سيستغلك ويجعلك دمية جنسية.

صفعته على وجهه، وتراجعت في ذهول. لم أدر كيف تجرأت على القيام بالأمر، لم أصفع رجلا في حياتي. وضع يده على خده، نظر إلى عيني قائلا:

- أنا آسف، معك حق. أرجو ألا تندمي على هذا الاختيار... وداعا.

ابتعد خالد وأنا ما أزال تحت تأثير الصدمة. كيف تداعى الأمر بهذه الطريقة؟ شعرت بالسوء لأني فقدت صديقا عزيزا. لكن لوثة من الشك انتقلت إليّ. فتساءلت لأول مرة: «هل سأندم على اختيار أحمد.»

جاءت العطلة البينية لتعلن عن موعد الرجوع الإجباري إلى البيت، كنت قد عاهدت نفسي بالتزام الحيادية، عدم الدخول في نقاشات قد تصيبني بويلات أكبر مني. عجبت كيف ضاق بي المنزل الذي تربيت بين جدرانه بينما فتحت لي مدينة جديدة ذراعيها في حنان ورفق.

ودّعت أحمد وقد انفجرت دموعي معلنة عما يجيش داخلي من رفض للبعد والفراق. وعدني بأن يزورني في مدينتي في أقرب فرصة. وأوصاني بأهلي خيرا. كما حثني على استغلال الوقت في القراءة والتحصيل. كل شيء بدا على ما يرام، عطلة.. طقوس وداع، فحافلة تهدر نحو مدينتي المتنكرة. لكن مخططاتي تلاشت عندما التهمتها نيران الصدمة التي وجدتها في استقبالي.

وصلت إلى باب المنزل، أنزلت حقائبي، ووقفت لبرهة. تنفست نفسا عميقا كأنني أستعد للغوص في عالم لا أنتمي إليه، فبعد الطرد الذي تعرضت له من طرف أمي تصدع في قلبي عماد المحبة الشامخ، وأخشى أن تتصاعد الأمور فيهوي إلى قرار سحيق. وها أنا ذي أغالب نفسي لأحافظ على الآصرة المقدسة، بالرغم من أن جرحي لم يندمل، وأكثر ما أخشاه أن ينكأه هذا الرجوع.

ضغطت الجرس وتناهى إليّ صوت أخي عبر الجهاز يسأل عن الطارق. فُتِح الباب فظهرت السلالم أمامي وإذا بصورة أمي ترمي بحاجيات وملابسي تنقض عليّ بلا رحمة. شعرت بغصة، لكنني اعتليت الدرج على مضض ثم وصلت إلى الباب الذي وجدته مفتوحا.

ما أصعب أن تدّعي السرور والسعادة، وأن تجاهد لترسم على وجهك بسمة حبور كاذبة. لم أكن سعيدة برجوعي إلى البيت، وقد زاد فراق أحمد الطين بلة.

كانت نواقيسي الخاصة تستشعر رياح سوء. لم أشعر بالسكينة، وزادت نظرات أسرتي المترصدة التي كانت تدخل في حوارات مِيميّة مع بعضها البعض.

وها هي والدتي تقطع الشك باليقين. داهمتني وأنا أفرغ حقائبي بعدما أديت واجب السلام والولاء. جلست تتأملني في صمت وأنا أرتب الكتب التي أدخلتها ضمن برنامج القراءة في العطلة. فجأة سحبتني من يدي وأجلستني قبالتها. ظننتها ستعقب على الحادثة الأخيرة،

وستسمعني خطبة عن الإيمان والطاعة. لكنها حطمت أفق انتظاري بل وصدمتني صدمة ألجمت لساني عن الكلام.

بعد مقدمة طويلة عريضة تصب في موضوع وجوب صون النفس والعفاف، وعرض عن تاريخ أسرتي المجيد في التشبع بالتقاليد الحميدة والتشبث بالديانة السديدة. وصولا إلى خاتمة تخبرني فيها بتقدم أحد الرجال الصالحين لخطبتي، وأنها ووالدي موافقان مبدئيا على الأمر لأنه رجل من الجماعة، متزوج ويرغب بزوجة ثانية تتعاون مع الأولى لتربية أبنائه الخمسة، والذين سيكونون إخوة لابنتي ياسمين التي ستتربى في كنف أسرة ملتزمة بمبادئ الدين والأخلاق.

لم أنبس بحرف، بقيت مشدوهة، بدأ العرق يتصبب من جبيني، شعرت بجسدي يهتز كأن داخل هذه الجثة الهادئة خارجيا، روح في داخلي تصرخ بجنون أن اتركوني في سلام.

لم يخف رفضي على والدتي، لكنها نهضت وهي توجه نحوي سهاماً من عينيها، ثم قالت بثقة:

- أتوقع منك أن تكوني امرأة حقيقة وتفكري في تحصين نفسك وبناء أسرتك وإسعاد زوجك، هذا دورك في الحياة. وانسي تلك الترهات التي تدرسين في الجامعة، أشياء تفسد الأخلاق وتهز كيان المجتمع.

- فهمت أمي.

ما إن خرجت من الغرفة حتى قفزت إلى السرير واضعة مخدة فوق رأسي وأجهشت بالبكاء، والكلمات تختنق في حنجرتي وأنا أسرُّ إلى مخدتي:

امرأة حقيقية؟ وهل من تختار طريق العلم امرأة وهمية؟ تحصين وبناء وإسعاد الزوج، هل تساءلت عن موقع سعادتي أنا في أحضان رجل لا تربطني به أية مودة؟ بل وتعلم يقينا أن توجهي الفكري يتناقض معه؟ هل تنتقمين مني يا والدتي؟

بيدين مرتعدتين حملت الهاتف الذي نال نصيبه من زخات الدموع

المالحة. هاتفت أحمد أنشد النجاة. كان إيقاع نحيبي يتزايد مع تزايد الرنات، أين أنت يا أحمد؟ ناشدتك الله أن تجيب أنا في حاجة إليك، أنقذني.

فتح الخط فاهتز قلبي، وانهمرت كشلال هادر أخبره بما حصل. جاراني هو بصمت مشوب بخشوع. ثم جاءني صوته بسؤاله الذي أطلق المقصلة:

- وما هو قرارك؟

وقع الهاتف من يدي، واجتاحتني نوبة ارتعاش شديد. لقد ترديت من علياء بهذا السؤال الجواب.

بقي اسمي يتردد من سماعة الهاتف وأنا جامدة الأوصال. أخذت الهاتف وضغطت على زر الإنهاء، وأطفأت الهاتف، كما انطفأ أملي الوردي..))

-20-

الآن فقط فهمت حذر أمي، صمتها وحتى مواجهتها للنوائب بثبات. انتشلني صوت رنين الهاتف من سهومي، فإذا به رقم أستاذي على الشاشة:

- مرحبا ياسمين، كيف حالك؟

- مرحبا أستاذي، بخير، عساكم في أفضل حال.

- شكرا لك. أتصل بك لأكلفك بإنجاز مداخلة حول موضوع "الفلسفة الوجودية" فهل أنت مستعدة؟

- كل الاستعداد أستاذي.

- موعد الندوة بعد خمسة أسابيع، بكلية الآداب بالرباط.

- شكرا على ثقتكم أستاذي، سأكون في مستوى تطلعكم.

- أنت أهل لذلك. في أمان الله.

- مع السلامة أستاذي.

بعثت هذه المكالمة الرغبة في البحث والعمل في أوصالي، خاصة أنها سكون ندوة وازنة وفرصة للاطلاع والتعرف على أساتذة وطلاب جدد. وهو شيء يشعرني بالانتماء وبعدم عبثية مساري العلمي كما يدّعي من حولي.

تحفزت للفكرة، فأعددت قائمة بالكتب التي أحتاجها من أجل إنجاز الموضوع. أعلمت أمي ببرنامجي الذي يتضمن السفر إلى الحي الجامعي حتى أكون قريبة من المكتبة والكلية.

ها أنا ذي في الحافلة وهي تتسلق طريق تطوان، سهومي الدائم منعني من حفظ معالم الطريق التي دأبت على قطعها مئات المرات لسنوات

عدة. وما زلت غارقة في تأملاتي الداخلية أرى ولا أبصر، أسمع ولا أدرك. عادة ما أقحم السماعات في أذني وأنتشي بأغاني كاظم الساهر التي لا أملّها. في فقاعتي الخاصة بعيدا عن ضجيج الحافلة الصارخ، أسبح في بحر ذاتي وذكرياتي.. يطفو عمر فجأة فيهتز قلبي، وتنقض عليّ غصة مفاجئة، ما ألبث أن أطردها وأنا أنفث نفسا عميقا حارا.

تطلعي لمستقبلي العلمي، هو ما يبقيني قوية. حاولت التشاغل بكتاب أحمله بين يدي، علّه ينتشلني من جلاد الذكريات. لم أكد أنتشي بانسجامي حتى أحسست يدا تشد ثوبي في حركة عنيفة. رفعت عيني عن الكتاب، فإذا بها امرأة أربعينية، مكتنزة الصدر، بطنها كأنه مخدة أقحمت قصرا في جلبابها الذي يستغيث من الحرارة والضيق..

سحبت السماعة من أذني، ونظرت إليها مستفسرة. فألقت سؤالها كأنها تستجوب معتقلا:

- هل ستنزلين في المحطة أم قبلها.

استفزني سؤالها. لجمت غضبي وأجبت باقتضاب:

- في المحطة.

أعدت السماعة إلى أذني أحاول التشاغل عنها وقد أقحمت جسدها في الكرسي الذي يتضرع مما مُنِي به من عذاب، فأعادت الكرّة، متسائلة:

- أنت من طنجة أم من تطوان.

كدت أنفجر غضبا، أجبت ببرود مصطنع:

- لو سمحت سيدتي أنا أحاول القراءة.

تفاجأت بالسيدة ترعد وتبرق، وهمّت واقفة وبطنها يتهلهل بعنف تحت جلبابها الضيق، وهي تصيح:

- بنات اليوم كلكن هكذا، تدعين الانشغال بالعلم، ولو جلس قربك رجل لبادرته أنت بالكلام. تبا لكن جميعا.

سلطت الحافلة كلها أضواءها علي، وأنا ساكنة لم أنبس ببنت شفة. شعرت بالخجل من الأعين المتفرّسة التي تُشرّح وجهي. أعدت إقحام

السماعة في أذني وأنا أناجي نفسي: «نحن شعب لا يتقبل فكرة احترام حدود الآخر. اتركوني في سلام».

جاءت فتاة شابة لتشغل الكرسي الذي أفرجت عنه المرأة الهوجاء، بادرتني بابتسامة تواطؤ وود، فرددت بمثلها. وغصت في بحار كتابي.

شعرت بتعب يلفني وأنا أفتح باب حجرتي في الحي الجامعي، ألقيت جسدي المتهالك على سريري، فاستقبلني ما عليه من أوراق وغبار بالأحضان. أرخيت العنان لجسدي، أطلقت سراح شعري، وسلمت نفسي لسلطان النوم.

-21-

كان يوما جميلا يعبق حياة وأملا، ولجت باب الكلية بخفة منطلقة نحو المكتبة التي صارت معبدي ومنسكي. استنزف التيه بين المراجع، والجري وراء الصياغات والأساليب طاقتي. خرجت منها في تثاقل، المقصف وجهتي، والقهوة السوداء رفيقتي. كنت أجر الخطى وأنا أتطلع لرائحة القهوة التي تعدني بإصلاح مزاجي، وطرد ألم الرأس الذي اجتاحني. استوقفني الأستاذ مستغربا:

- ياسمين ناديتك مرارا، هل أنت بخير؟

- آه، مرحبا أستاذي. أعتذر بشدة لم أنتبه لذلك.

- لا بأس عليك. ما أخبار مداخلتك؟

- أنوي قضاء هذا الصباح في المكتبة لأجمّع المادة، وأرسمت محاور عدة يمكنني...

قاطعني قائلا:

- أشياء كهذه تستحق مني العناية، لأنك ستمثلين جامعتنا في ذلك الملتقى الحافل، ومن الضروري أن يكون عملك متكاملا.

شعرت بحمل المسؤولية، وبضآلة المجهود الذي بذلته. طأطأت رأسي قائلة:

- معك حق أستاذي، سأحاول أن أكون في مستوي تطلعكم.

- وأنا هنا لمساعدتك.

- لطف منكم أستاذي.

- هل نلتقي في السادسة مساء لندرس التصميم؟

أجبت ببلاهة:

- لكن الكلية تقفل أبوابها في السادسة.

ابتسم بهدوء:

- أقصد أن نلتقي في إحدى المقاهي، هذا إن لم يكن لديك مانع.

تناهى إليّ صوتي أمي وهي تنصحني بالحذر يوم أخبرتها بإشادة الأستاذ الكبيرة بي. لكن طردت عني هذا الخاطر مناجية نفسي: «لست طفلة». أجبته بابتسامة هادئة:

- بكل تأكيد أستاذي، فقط أخبرني باسم المقهى.

- الملتقى، هذا هو اسمه. وهو ليس بعيدا عن الحي الجامعي.

- حسنا أستاذي، أقدر لكم جميل الاعتناء.

- هذا واجب، أراك مساء.

- مع السلامة أستاذي.

-22-

أخذت وجبة خفيفة وتوجهت لغرفتي، رتّبت المسودات التي سأعرضها على الأستاذ. شعرت بالضجر ينقضُّ على قلبي، أبعدت الأوراق جانبا قائلة:

- لقد أخذتِ ما يكفي من الوقت.

استخرجت مذكرات أمي، فهي إدماني السري، وسَلْوتي التي تعبق بالكشف.

((شعرت بالخذلان، أطفأت الهاتف، وقد أزمعت ألا أسمع صوت أحمد مجددا. لم أدرِ كيف سرقني النوم حتّى تسربت أشعة الشمس تداعب وجهي، فنهضت متثاقلة كأني امرأة في الثمانين.

الجميع لا يزالون نياما، إلا صغيرتي ياسمين التي اختارتْ أن تشاركني خيبة صباح جميل. فتحت النافذة فتنفست عبق الصباح المميز، نسيم عليل اغتنمه قبل أن تلوثه أنفاس الظلم والنفاق والسيارات.

«محظوظة أنت يا صغيرتي ياسمين، على الأقل لا يجثم شبح إدراك الواقع الكالح على صدرك. سعادتك نشوة بارتشاف حليبك الدافئ، وحضن أهديه لك يمنحنا معا لذة السكينة والسلام. لن أتخلى عنك أبدا يا صغيرتي.»

قررت أن أصحب ياسمين من أجل إحضار خبز الفطور الساخن. حملتها بين يدي، ويدها الصغيرتان البضتان تداعبان وجهي، وهي تكرر كلمة ماما بلا انقطاع. منحني حضورها أُنسا تشاغلت به عن الرصاصة التي تلقيتها من أحمد.

لم ينتبني هذا الشعور قط، أحسست أن كل شيء في جسدي توقف،

حتى عيني تسمرتا وأنا مشدوهة لا أكاد أصدق. إنه أحمد، أمامي مباشرة ضاما يديه إلى صدره في إشارة متوسلة. وها هو يتقدم نحوي ببطء. يا لجنونه، كيف عرف عنوان المنزل؟ هل أتى من مدينة أخرى إلى هنا من أجلي؟

ما إن اقترب مني حتى انفجرت عيناي بسيل من الدموع، احتضنني وياسمين معا، وابتهالات الرجاء تتقاطر من فمه، «كانت زلة لسان، لم أقصد ذلك حبيبتي. أرجوك سامحني». لم أنبس بكلمة لكنني تفاعلت مع احتضانه لي، كأني غريق ينتظر منقذه في لهفة. قلت في حذر:

- لنبتعد عن البيت.

حمل عني ياسمين، التي استلطفت وجوده، ولم تبكِ مستنفرة كما تفعل عادة مع الأغراب. دخلنا مقهى قريبا، أمسك يدي بإحدى يديه، بينما ضمّ ياسمين بحنان بيده الأخرى. نظر نحوي وعيناه ترشحان براءة وعطفا:

- أحبك وأحب ياسمين، هي ابنتنا حتى لو لم أكن والدها البيولوجي. معا سنربيها أحسن تربية، وسنجلب لها إخوة يؤنسون وحدتها. أنا هنا لن أتخلى عنك أبدا.

- أحبك حبيبي.

-23-

اكترى أحمد منزلا من أجلي، وقد استطعت أن أجد طالبة وافدة تشاركني السكن، حتى أخفف عنه سومة الكراء المرتفعة. أحضرت معي ياسمين، لكني أدركت أن بقاءها صعب إن لم يكن مستحيلا. هي طفلة تحتاج إلى رعاية ومراقبة مستمرة، وأنا طالبة أحتاج إلى حضور المحاضرات، والاعتكاف أمام الحاسوب وفي المكتبات.

إنه اليوم الثالث بعد هروبي من منزلنا في ذلك الصباح المشرق، غيّرت رقم الهاتف تفاديا لأي هجوم تهديدي توعّدي من والدايْ.

بعد استشارة أحمد في شأن ياسمين، لم أجد بدا من الالتجاء إلى جدتها، أم يوسف. وأنا أُمَنّي نفسي بأن هذا الحلّ مؤقت وأني سأستردها في أقرب فرصة. أخذت الحافلة وياسمين تشاغبني إلى أن استسلمت للنوم، لم أستطع كبح دموعي وحلقي يضيق بغصة وصدري يعتصر ألما من الفراق المر الذي أجبرت عليه.

سلّمتها لجدتها وقد أبدت لي سرورها بهذه النعمة التي منحها الله لها لتؤنس وحدتها وتسلّي نفسها. وعدتني بأن ترعاها أحسن رعاية، داعية أن يصلح الله الأحوال بيني وبين يوسف ونعود لبعضنا إكراما لهذا الملاك البريء. عبّرت عن شكري وامتناني، ووعدتها أن غيابي لن يطول. وودّعت ياسمين ونحن نتغنى بسمفونية نحيبٍ مشتركة.

ابتعدت وأنا أحثّ الخطى حتى صار مشي يشبه هرولة أثارت انتباه المارة حولي. أطلقت العنان لدموعي، بكيت وبكيت دون انقطاع. شعرت بالحنق ورغبة جامحة في التوجه إلى البيت والانفجار في وجه والداي. لكني أسلمت قدماي إلى محطة المسافرين وعدت إلى غرفتي

أتحسس قطع من ملابس ياسمين بقيت متناثرة فوق السرير.

لم أرغب في الحديث مع أي مخلوق حتى لو كان أحمد، أطفأت الهاتف، وانخرطت في جلسة صوفية من بكاء ونحيب مرَضِيّ. هل نمت أم أغمي علي، لا فرق!

ها أنا ذي أستيقظ على أشعة شمس يوم لعين آخر، وسيكون عليّ أن أخوض معركتي وحيدة في هذه الحرب الأزلية. هل ألوم أحمد على فراق ياسمين؟ على الأقل كنت مطمئنة عليها لما كانت في كنف والداي.

لم أشعر برغبة في أيّ تواصل، لكن جدران الغرفة أحكمت قبضتها على صدري، فقررت التوجه للكلية لعلّ أجواء العلم والتحصيل تكون حبل النجاة من أمواج الهموم المتلاطمة.

ألقتني الحافلة المكتظة بالطلبة، كأنها تلفظ طعاما ضاقت به معدتها. دخلت الكلية مع الداخلين أجرُّ قدماي والوهن يسيطر على جسدي. سمعت صراخا ملحا باسمي، إنه خالد وهو ينادي عليّ من بعيد.. جاء مهرولا تتبعه زميلة لنا:

- أسماء بالله عليك ما هذا الذي تفعلين؟؟ كيف تهربين من المنزل؟ هل أنت مراهقة؟

أردفت الفتاة:

- لقد كنّا مع والدتك على الهاتف قبل قليل، وهي قلقة وغاضبة أيضا. إنها تستغرب تجرؤك على مثل هذا الفعل.

ابتسمت بهدوء، ووجهتُ الكلام لخالد:

- باختصار أنا مقتنعة بما فعلت ولن أعود.

وضع يده على جبهته، وطأطأ رأسه في استسلام. بينما اختارت الفتاة أن تنسحب في لامبالاة.

بقي خالد على حاله مطأطئ الرأس، فاحترت في الذهاب أو البقاء. لم أكدْ آتي بحركة حتى رفع رأسه اتجاهي في غضب:

- لمَ تفعلين هذا؟ أكل هذا من أجل ذلك اللعين المعتدّ؟

انفجرت في وجهه:

- تبا لك خالد ما الذي تعرفه عن حياتي؟ أين كنت بينما كانوا يستعدون لتسليمي كزوجة ثانية لرجل سلفي مريض؟؟ أتلومني الآن؟؟

- لكنك لم تخبريني شيئا؟ كيف ومتى؟

- كيف أخبرك وكل حواراتنا صارت جدالات حول أحمد؟ أنا حائرة في أمرك تقدم نفسك كصديق وتخدم كأخ وتتحكم كزوج أو حبيب! ما الذي تريده مني بالضبط؟؟

- معك حق، معك كل الحق.

همّ بالرحيل، وإذا بأحمد يخرج فجأة من حيث لا أدري، لم أره يتقدم نحونا، طفا فجأة وأنا في غمرة الثورة. نقّل نظراته المتفحصة بيني وبين خالد، وتوجه إليّ بالسؤال وهو يتفرس في وجه خالد بنظرة مباشرة:

- لم أقفلت هاتفك؟ ما الأمر؟ ما الذي يجري هنا؟

أردت أن أقدمهما لبعضهما لكن المقام لم يسمح. انسحب خالد في صمت مطبق، فانقض علي أحمد يهزّ جسدي بعنف:

- كيف تفعلين هذا بي؟ لمَ أقفلتِ الهاتف وتركتني فريسة للتأويلات والظنون.

أمسك رأسه بكلتا يديه:

- ما الذي يحدث؟ ثم من ذلك الشخص؟ وما علاقتك به؟ أريد أجوبة حالا.

- لقد اتصلت أمي ببعض الزملاء، وهي غاضبة.. كان يخبرني بالأمر.

قاطعني قائلا:

- زملاء!! كيف لأمك أن تحصل على رقم ذلك الشخص؟ ولم هو بالتحديد لم لمْ تتصل بطالبة.

- لقد اتصلت بطالبة، وقد بحثت عني طوال الصباح، ثم اضطرت للرحيل، وأوكلت خالد بالمهمة.

صرخ في وجهي:

- لا تنطقي اسمه، ولا أريدك أن تتواصلي معه بأي شكل من الأشكال.
- لكنك لا تعرفه؟ ما بك أحمد؟ ما هذه العدائية؟
- عدائية؟؟ نعم سمها عدائية، لكني رجل وأعلم كيف يفكر الرجال، وهذا الشخص يضمر مشاعر اتجاهك.
- كل هذا عرفته في ثوان معدودة.
- نعم، وأَعِي ما أقول، لنرحل من هذا المكان لدينا جلسة مطولة أريد أن أعرف كل التفاصيل، عن سبب غيابك وعن هذا البئيس.))

-24-

كدت أنسى موعدي مع الأستاذ، ما إن راودني الخاطر حتى شعرت بتوتر مريب يسري عبر جسدي.. لم أعتد لقاءات مشابهة. لكن لقاء أستاذ خارج أسوار الجامعة أمر مألوف بين الطلبة، هكذا حدثت نفسي وكأنني أكتم صوت عدم الرضا الذي يصّر على التشويش داخلي.

جهزتُ نفسي ورتبت مظهري، وحملت ترسانة من الكتب والمسودات. أخذت نفسا عميقا صافقة باب حجرتي بعدما ركلتها بقدمي، الوسيلة الوحيدة المتاحة لإغلاق الباب وقد احتشدت يداي بالكتب، وتشبث الحاسوب متأرجحا في محفظته بكتفي مخافة انفلات قاتل.

قطعت المسافة وأنا أردد الأفكار التي سأجعلها على الجبهة، نعم عليّ أن أكون دقيقة ومنظمة أيضا. عليّ أن أعرفَ كيف أبدو جديرة بهذه المسؤولية التي شرفني بها الأستاذ.

أقبلت على المقهى، تفاجأت بحضوره المبكر، تقدمت نحوه ودقات قلبي تتزايد، الأمر هنا مختلف.. كأن الجرأة التي تتملكني داخل الكلية قد تم امتصاصها من طرف هذا المقام المُباين. رواد المقهى يتبادلون الأحاديث بشغف.. رائحة القهوة تنساب عبر الفضاء في مغازلة دائبة. أما هو فكان هناك على طاولة تستقبل مشهد البحر بساطا أزرق لا متناه. كان يحمل سيجارة تحترق مطلقة سراح دخان يتهادى نحو الأعلى ببطء. لم أره قطّ يدخن.. كان يشكل لوحة وقد سلطت شمس المغيب أشعتها على واجهته، فظهر من الخلف خيال ظل يكتنفه غموض لذيذ. ابتسمت في استخفاف: «فعلا صورة تصلح لملصق فيلم بعنوان الرجل الغامض».

تقدمت نحوه فهبّ واقفا يساعدني على إنزال ترسانتي وبسمة عريضة تعلو وجهه. لم يكتف بذلك بل بادر بجر الكرسي بأدب بالغ قائلا:

- تفضلي آنستي.
- شكرا أستاذي.
- تبدين مستعدة.

ابتسمت بخجل:

- أريد أن أكون عند حسن ظنكم أستاذي.
- أنت كذلك ياسمين.

استرخى على كرسيه متراجعا إلى الخلف، وأنا في محاولة يائسة لترتيب الكتب التي أحضرتها، من أين أبدا؟ تبا ما هذا الإحراج، ولم يحدق بي هكذا؟ أيستمتع بتوتري!

فجاءتني يده تمسك بكتاب وقد هممت بإنزاله:

- ياسمين انظري إلي.

شعرت بالدم يقتحم وجهي، وانتابني إحساس غريب. فطأطأت رأسي خجلا.

- ما الأمر ياسمين؟ ثقي بي انظري إليّ.

رفعت عيني ببطء وترقُّب.

اعتدل في جلسته، وقال باحترافية:

- في جلستنا هذه، نريد أن نستفيد من المجهود الذي قمتِ به. لقد اطلعتِ على الموضوع، جمعتِ المادة، وكوّنت رؤية. فلمَ لا تحدثني عن هذه الرؤية حتى نتمكن من استثمارها في إنشاء تصميم مثالي للموضوع.

تلعثمت وأنا أشعر بخجل عظيم، هل أدرك أني تلقيت كلامه على أنه شروع في التغزل؟ يا لحرجي.

نظرتُ إليه مرة أخرى، كان في عينيه ذكاء صارخ، وعلى قسمات وجهه ثقة تمنحه سكينة ووجاهة. كنت أشعر أنه مطلع على هواجسي، مدرك لما يراودني من خواطر.. يجاريني بذكاء وتعالٍ مثبتا أنه المسيطر هنا.. أعطاني وقتا أكثر مما أردت وأنا في محاولة غريق أستجدي قوارب نجاة من أفكاري التي تحطمت على أمواج سطوته.

بابتسامة هادئة يراقبني كفأر تجارب مستمتعا بالمسرحية التي تسير تماما بما يرضي غروره. أخذ من جيب قميصه قلما، وسحب ورقة بيضاء. نظرت إليه في اهتمام. قال:

- ارسمي لي خريطة، أسهم وبؤر وفروع.. ارسمي لي رؤيتك للموضوع.

أمسكت القلم، وقد بلغ مني الحنق مبلغا. همست: ليكن.

لم أدر كيف انهمرت شلالا جارفا على تلك الورقة، كتبت وكتبت وشرحت وتحدثت حتى كدت أعتلي الطاولة لإلقاء خطبة عن الموضوع.

لم يقاطعني، ولم يزد عن ابتسامة ترافقها إيماءات بالرأس من حين لآخر. شعرت أني سيدة الجلسة بامتياز، وأني فعلا مستعدة لإلقاء عرضي وتمثيل كليّتي أحسن تمثيل.

انتهى اللقاء وقد انفرط ميزان الزمن منّي، أدركت بعد توديعه أننا قضينا ساعتين كاملتين. عدت إلى الحي الجامعي وقد سكنني شعور غريب، شعور بالدونية أمام رجل تقمص لبوس السيطرة والتعالي. كأنني طفلة متوقعة التصرفات، أمام جدّ يراقب أفعالها بهدوء وصبر كيْ يجعل منها موضوعا للتعلم. على رغم من ذلك كنت راضية على اللقاء، خاصة بعد استعراض قدراتي ومعارفي في خطابي. لكن تلك اللحظة اللعينة بقيت تخِزُني.. لحظة توتري حين ظننت أنه يتغزل بي. تبا يا للخزي، عليّ أن أثبت له أني لم أفكر بتلك الطريقة، وأني أعتبره مثل أبي. وقفت العبارة في حلقي، فأعدتها كأني أثبت لنفسي أني قادرة على نطقها: أبي...

خطوتُ بهدوء نحو النافذة، وقد استفزت هذه الكلمة مشاعري، تنهدت في شجن:

- ولكن أين أنت يا أبي؟ أتُراك تنعم بالسعادة في حضن زوجتك وأبنائك متناسيا أنك كنت مساهما في إحضار مخلوقة بئيسة إلى هذه الحياة اللعينة؟

حتى إن ناصبت أمي العداء، فهل نسيتَ إنسانة فرضتَ عليها أن تحمل اسمك؟ أتكفي في نظرك لقاءات الأعياد وبعض الرسائل القصيرة الجافة لتمنحك صفة الأبوة؟ لا سيدي لا أظن ذلك!

-25-

استيقظت وأنا أعانق دبي المحشو الذي أخصه بحب ليلي عميق، فهو يلازمني أينما حللتُ وارتحلت، ولا يغمض لي جفن إلا وقد عانقته بنهم وحنان.

كان عمر يدّعي الغيرة، ويتوعد الدب بالبطش مدعيا أنه يسرق مكانه.. آه من عمر وأيامه.. لولا الدراسة لما استطعت انتشال نفسي من مهاوي الاكتئاب السحيقة. شغلت نفسي وجعلت تفوقي هاجسا سعيت إليه بشراسة.

تذكرت لقاء الأمس مع الأستاذ، فشعرت بالرضا وقد ألقيت عني مخاوفي وأصبحت مستعدة لمهمتي. موعد السفر قريب، وأنا متحمسة له. أخرجني صوت الهاتف من دوامة أفكاري وهو يرن بإلحاح. نظرت إلى الشاشة في استغراب، إنه الأستاذ مصطفى. لم يا ترى يكلمني على رقمي الخاص؟ أ هو أمر أهم من أن ينتظر موعد المحاضرة؟ فتحت الخط:

- مرحبا أستاذي.

- مرحبا ياسمين، كيف الحال؟

- بخير عساكم في أفضل حال.

- ياسمين أرجوك، دعينا من ضمير الجمع المرهق، إنه خاص بطلاب السنة الأولى.

وضحك بحبور.

تضاحكت قائلة:

- حسنا أستاذي.

- أجل وهو كذلك، تعجبني ياء النسب. طالبتي.

شعرت بتضايق، ها هو يمارس لعبته الممتعة مرة أخرى، جاءني صوته:

- اتصلت بك لأخبرك أن مصاريف السفر والإقامة أيضا ستكون على حساب الجامعة، فلا تحملي هما.

- آه جيد، خبر مفرح أستاذي.

- نعم.

صمت لبرهة وأضاف:

- طالبتي.

انتهت المكالمة وأنا أستعيد الحوار الذي دار بيننا. غامض ومبهم.. محدد ومتعدد، أتراه يستمتع بدور الأستاذية التي يمارسها عليّ؟ زفرت في حنق. ضممت دبي المحشو إلي وهمست في أذنه:

- لكنه يملك سحرا، ولا أدري ما سره.

رن في ذهني جرس صغير، ألم تشتاقي لأسماء؟

- نعم كل الاشتياق، هيا نغُص في بحارها الممتدة.

استخرجت الأوراق الأثيرة ووضعتها فوق المخدة، استلقيت على بطني فوق السرير في تحفز لمعرفة مآل أسماء بعد هربها من منزل والديها واستنجادها بأحمد أو الوسيم كما يحلو لخالد أن يسميه.

أتذكر آخر موقف جمع أسماء بأحمد وكيف زجرها عن علاقتها بخالد رغم أنه يراه لأول مرة. تابعت القراءة:

((غاب خالد، وطال غيابه. في البداية كنت متمسكة بوعدي لأحمد بعدم الاتصال به. لكني قلقت بشأنه وقررت النكث بوعدي. ركّبت رقمه وإذا بي أسمع تلك الجملة المقيتة:

- يتعذر الاتصال بمخاطبكم، المرجو إ..

ضغطت الزر بعصبية قبل أن تكمل تلك المرأة الآلية جملتها. لا أدري ما هذا القلق الذي يسيطر عليّ بشأن خالد فيجعلني في عصبية وتوتر مستمر.

قررت القيام بخطوة أكثر جرأة، ولو أني أعرف أنها يمكن أن تخلق مشكلة جدية بيني وبين أحمد. لكن قلقي لم يترك لي خيارا.

تقدمت من أحد الوجوه التي اعتدت رؤيتها مع خالد، طالب من شعبة الانجليزية، رأيته مع خالد عدة مرات. لم أجد عنه بديلا:

- مرحبا أخي، هل تسمح لي بسؤال.

نظر إليّ نظرة فاحصة، كان يمرر نظره صعودا ونزولا على جسدي كأنه يمرر جهاز سكانير.

- نعم أيتها الأخت.

قالها بتهكّم. فصككت أسناني في حنق. لكني تابعت في ادعاء للامبالاة:

- أسأل عن خالد طالب الفلسفة. هاتفه مقفل وقد طال غيابه. ألديك فكرة عن مكان وجوده أو سبب غيابه.

- نعم أيتها الأخت لديّ... فهو يقاسمني السكن.

تناسيت نبرته المتعالية المتهكمة، وكدت آخذ بيده وأجره جرا نحو المسكن المزعوم. تصنّعت الهدوء قائلة:

- أرجوك أخي، أعطني عنوان المنزل. الأمر هام.

بهدوء قاتل رد:

- أنا في خدمة الأخت. تفضلي.

لم أفكر، بل لم أعط نفسي فرصة للتفكير، مشيت بجواره في صمت مهيب. كانت الأفكار تتصارع داخل رأسي بصخب، لكني حافظت على هدوئي وفضلت التزام الصمت مع هذا (الأخ).

خطواتٌ وخطوات، لم أسأل إن كان البيت قريبا أم بعيدا؟ أنستقل سيارة أجرة أم نتابع راجلين. كسر صمتي بصوته المستفز:

- المنزل خلف الكلية تماما.

أشار بيده:

- إنه المنزل ذو اللون الأخضر.

لمحت المنزل المقصود، فشكرت الطالب على المساعدة، وهرعت في خطى حثيثة نحوه. لم أهتم لشيء لا لجيران سيرَون فتاة تطرق باب منزل يكتريه

شبان ولا شبح أحمد الذي يتوعدني بخصام عنيد فوق طاقة مشاعري.

طرقت الباب، وانتظرت بعض الوقت. ثم أعدت الطرق بقوة أكبر.. بعد برهة سمعت خطوات ثقيلة تتجه نحو الباب. وأخيرا فتح، وها هو خالد يقف أمامي.

نظرت إليه، خالد كما لم أره من قبل، لباس النوم وذقن غير حليقة، ووجه ذابل وعينان.. لكن.. لكن ما هذا؟ ما الذي أصاب عينيك يا خالد وما هذا الحوَل الخفيف الذي لم أعهد فيك من قبل. فتحت فمي:

- خالد.

- أسماء.

اندفعت نحو الباب، ودفعته بهدوء مقتحمة المنزل دون أن آخذ إذنه بالدخول. تابعني في توتر:

- أيتها المجنونة لا شك أن الجيران رأوك. فلننتظر صاحب المنزل أو الشرطة.

- خالد، أريد أن أفهم لم تفعل هذا؟ لم أقفلت هاتفك؟ وهجرت المحاضرات؟ وما هذه الحالة المزرية التي تغرق فيها؟

- أسماء، أرجوك، لا داعي لهذا، أمري ميؤوس منه، عيشي حياتك أيتها الجميلة، وانس هذا البئيس.

قلت في غضب:

- أنت تستفزني، وتعلم أنني مجنونة. أمنحك خمس دقائق لتلقي عنك هذه الملابس وتلحق بي.

- أسماء، أسماء..

تجاهلت نداءه وتقدمت نحو الباب، سحبتها ورميته بنظرة توعُّد:

- خمس دقائق.

-26-

خالد كما لم أره من قبل، صدمني سَمْته الذي يطغى عليه الذبول والوَهَن. تسمرت عيناي على وجهه، بل عيناه اللتان كان يجتهد في إبقائهما بعيدتين عني. قلت بجزع:

- ما هذا الحوَل الذي أصاب عينيك يا خالد؟

- أسماء أرجوك، دعينا نشرب قهوتنا، ولنذعن لمشيئة الزمن بتفرقتنا.. الأبدية.

شعرت بيديّ ترتعدان، وبمغص المصائب ينقض على معدتي. والأرجح أن جغرافية ملامحي عرفت زلزالا قويا استفز مشاعر خالد فأمسك بيدي لأول مرة منذ عرفته قائلا:

- إنه السرطان في مرحلة متقدمة، أيامي على هذا الكوكب معدودة، إني راحل..

أصابتني نوبة بكاء اختلطت بضحك، كأنها هستيريا من نوع ما.. بدأت أرجُّه قائلة:

- أنت تمزح، أخبرني أنك تمزح..

- للأسف هذه هي الحقيقة. كنت أشعر بآلام متكررة في الشق الأيسر من رأسي وكثيرا ما تصيبني غشاوة على عيني اليمنى يطول أمدها أو يقصر. تجاهلت الأمر مرارا إلى أن ازدادت حدة الألم في تلك العين، وتفاقم الأمر ففقدت القدرة على الرؤية من خلالها. حينها فقط توجهت للطبيب، فحصني فقال جملة واحدة: «مخ وأعصاب» تهت في عالم التحاليل، أجر قدمي بين المختبرات والأطباء، في وحدة شنيعة. لم أشأ أن أتقاسم ألمي مع أحد. كنت أحدث نفسي دائما أني سأكون

بخير، وما من داع لإزعاج الآخرين بتفاهاتي. لكن الخبر اليقين جاء على لسان الطبيب وهو يربّت على كتفي متصنعا التأثر:

- هل يرافقك أحد من الأهل أو الأصدقاء؟

- أنا لوحدي، ومستعد لتقبل حكم الله، تفضل دكتور.

- أسف بنيْ، لقد استفحل السرطان لم يترك مجالا لأيّ تدخل، لكن..

قاطعته قائلا:

- فهمت دكتور، سأختار طريقة جيدة أقضي ما تبقى لي من وقت حتى أرحل في سلام.

لم أعطه فرصة للرد، ورحلت أجر قدمي وعلى شفتي بسمة سخرية تزاحمها دمعة حسرة حارة.

أمسكت بيدي خالد، بكيت حتى اهتز جسدي واحمر وجهي، وانتبه كل من حولي. وددت لو أعانق خالد وأواسيه، لكن أي شيء يواسي رجلا مقبلا على الموت! ألم يكن أرحم به أن يباغته فجأة دون أن يجشمه عذاب انتظار البلاء...

ودعت خالد وقد جعلته يقطع لي وعدا أنه سيبقى على تواصل معي. وعاهدت نفسي أن أسانده إلى آخر لحظة.

تتسلل البدايات إلينا بسلاسة، تستدرجنا زاجّةً بنا في شباك الذكرى. نعم إنها الذكريات تلك الأغلال التي تقيدنا إلى دهاليز الشجن. تحرمنا متعة اللحظة وقد تقتل تطلعنا إلى المستقبل. ولكن هل باليد حيلة؟

أغلقت عليّ باب غرفتي، وراودني شعور مُلح بإغلاق هاتفي، والاختلاء بنفسي. أخفيت عن أحمد ما حدث، لا لأنه منعني من التواصل مع خالد، بل لأني لم أشأ أن أجعل منه موضع شفقة أو حتى تشفٍ من طرف أحمد. تساءلت هل كنت لأحب خالد لولا ظهور أحمد في حياتي؟ أم أنني أحبه بالفعل دون أن أدري؟

انتشلني رنين الهاتف من أفكاري، إنه أحمد. صوت الهاتف يطرق في إلحاح، يزيده الوميض حثا ودعوة للرد. كان اسمه يتراقص على الشاشة

وقد وشحته بياء النسب "أحمدي" وأنّى لي هذه الملكية المشتهاة؟ هي وهْم لا محالة.. سراب رمتني إليه قسوة قدر غاشم. فإنسانيتي في غنى عن أية ملكية أو قيد. حبي نسمات عليلة تجول في سماوات السعادة دون كدَر الأغلال.

وَيْحي لقد فوّت المكالمة، يبدو أنني أغالي في خواطري، الأفضل أن أحطّ على أرض الواقع وأقلع عن هذه العادة التي لا تورثني إلا أحزانا فوق أحزان.

أخذت الهاتف وهممت بتركيب رقمه، لكن اسمه ظهر على الشاشة مصحوبة بتلك الرنة اللحوح. أجبت في تثاقل:

- مرحبا أحمد.

- أسماء! لم لمْ تردي.

أجبت في عصبية:

- وهل يفترض أن أصحب الهاتف إلى دورة المياه؟

- رويدك أسماء، ما بالك ثائرة هكذا؟ هل من خطب؟

أجبت ببرود:

- لا جديد.

- إن كنتِ بخير، فأحلاما سعيدة.

وكأن الندم راودني على معاملتي الجافة، فتلعثمت قائلة:

- أحلاما هنيئة.

جلست أتفرس السقف وقد ضاق صدري، وكاد رأسي ينفجر من نواقيس الهموم التي تدق بصخب. حياتي كحلبة مصارعة، يتوسّطها جسدي الوهن ويتلقى ضربات من خصوم متعددين في عجز تام عن أي دفاع أو صدّ.

أاحتراقي وقد فررتُ هاربة من أسرة فضلت تسليمي بضاعة لرجل متزوج، أم هواني وقد حمّلت أحمد تبعات اكتراء هذا المسكن ونفقاته. أم كبدي الذي تمزق لوعة من فراق صغيرتي ياسمين. ثم خالد الصديق

الذي وجدت فيه حضنا أبوياً وعناية هوّنت عليّ غربتي. وها أنا أقف على عتبة فقده الأبدي.

لم أعد حِمل ضربات أخرى.. فقدت الرغبة في المقاومة، في الحياة، شعرت بطرقات خفيفة على باب حجرتي، فتأففت ساخطة: تبا لهذه الحياة أتقطع عليّ حتى لحظات احتضاري، ونشوة استسلامي. استجبت على مضض:

- تفضلي يا سناء.
- أرجو ألا أكون قد أزعجتك.
- لا أبدا.
- جئت أعلمك أني سأسافر بعد غد من أجل حضور خطبة أختي.
- مبارك، بلغيها خالص التهاني.
- كنت آمل أن تبلغيها ذلك بنفسك.. أقصد أحببت أن ترافقيني وتكوني حاضرة في هذه المناسبة. أنت طيبة وتستحقين بعض السلوى.

أمسكت يديها تعبيرا عن تقديري لمبادرتها، واعتذرت لها بلطف ولباقة. فانسحبتْ بخفة وأنا أراقب جسدها المتوثب النشيط. ربّاه كيف للخاطر المكدّر أن يصيب الجسد والروح بشيخوخة تسقطه متهالكا فريسة لشريط الذكريات الأليم. بينما قد يسقي الخاطر المبهج الجسد غيثا صيبا فيهتز طربا وحبورا.

أمسكت الهاتف وركبت رقم أحمد، تأففت من هذه العادة البغيضة إذ أني لا ألبث أخبره بكل ما جدّ، سواء كان أمرا جللا أم كان من السفاسف التي لا تستحق حتى الوقت المهدور على تداولها. وطالما أنّبتني زميلتي في السكن، كانت تضع أصبعها وراء أذنها في حركة خفيفة تنمُّ عن التحذير، وهي تقول: «ليس كلّ شيء يُقال يا أسماء».

وتراقبني بعيني خبيرة مجربة، وأنا أتقافز كطفلة مستهترة، أتطلع لسماع صوت حبيبي لأنطلق سيلا هادرا لا يغفل أبسط التفاصيل. وقد كان يفعل المثل أو على الأقل هكذا ظننت. فاستشعرت قربا عجيبا وتواؤما

مهيبا، فكأني أعيش فيه ويعيش فيّ. أعرف عنه أكثر مما يعرف أي شخص في هذا الكون، كنت الأقرب له، حتى من أمه. فأنا حضنه الدافئ وهو ملجئي الآمن وملاكي الحارس.

فتح الخط، فآتاني صوت ينم عن برود:

- نعم أسماء.

أين عمري وحبيبتي؟ ولكن أنا البادئة، إذن فهو معذور. أشرق صوتي في ادعاء للبراءة قائلة:

- أشعر ببعض الخوف، فسناء ستسافر غدا وستتركني وحيدة فريسة للأشباح والعفاريت.

تحفز صوته، كأنه انبعث بعد رقدة طويلة:

- أحقا تتكلمين؟ هل ستتركك سناء لوحدك.

تابعت ادعائي:

- أجل.

تبادلنا صمتا خلت أنه طال دهرا، حتى كسره صوته قائلا:

- ما رأيك هل نفعلها؟

ابتلعت ريقي وتسمّرت عيناي، وسرت في جسدي رعشة. فشددت يدي على طرف ثوبي في توتر وأحسست بضربات قلبي تتصاعد. لكني زجرت نفسي في تأنيب: أنا السبب أنا السبب. قلت في محاولة يائسة للتغابي:

- نفعل ماذا؟

- نحقق حلمنا الصغير في النوم جنبا إلى جنب وأنا أحتضنك كطفلة صغيرة.

راودتني صور القبل التي كنا نسرقها على حين غرة، وكدت أشعر بلمسات الحنان التي يمتد شداها من يدي ليسري في سائر جسدي الظمآن. لكني وعلى الرغم من خطوتي الطائشة الرعناء، كنت على

قدر من الحرص والتأنّي. لذا اخترت أن أقبر الموضوع حتى لا يعدو أن يكون خاطرا لذيذا أو حلما عابرا. فأجبت:

- أفضل ألا نقدم على خطوة كهذه يا أحمد.

صمت وشاركته صمته، ثم أتى صوته الذابل:

- كما تريدين.

- شكرا حبيبي.

- ليلة سعيدة.

- ليلة سعيدة.

أمراهقة متأخرة هي؟ ما الذي أصابني؟ ألم أغرر به بشكل مباشر! لكني فعلت ذلك بتلقائية ولم أنو استدراجه. رباه يا للخزي...))

ضحكت من ورطة أسماء وكدت أتخيلها تقضم أظافرها حنقا على خيبتها الثقيلة. وددت أن أتابع الحكاية. لكن الجوع وخزني بعنف، يا له من منبه قاسٍ. غادرت سريري إلى المطبخ، وعدت وقد أعدد سندويشا أسكت به قرع الطبول داخل بطني. قفزت إلى سريري أو بالأحرى سفينتي التي تحملني إلى عوالمي المتفردة. استلقيت في تعب قائلة: «هيا يا سفينتي احمليني إلى عالم الأحلام.» واستلمت لنوم عميق.

-27-

إنه اليوم الموعود، لقد أزِف وقت السفر، وحان موعد تمثيل كليتي في تلك الندوة الوازنة. كنت كتلة من التوتر تمشي على الأرض. فجأة صار كل شيء عصيّا وصعبا. بدءً من اختيار الملابس إلى تعداد أبسط تفاصيل وحاجيات السفر.

كنت مهتمة بمظهري، وبالتالي فمهمة اختيار الملابس كانت تثقل كاهلي، وتصيبني بضيق رهيب. هي مهمة قد تبدو بسيطة أو حتى تافهة للبعض، أما أنا فقد عقدت مشاورات ومحاورات مع المرآة وأنا أتأرجح بين ترجيح هذا الطقم أو ذاك. ليقع اختياري أخيرا على بذلتي الحمراء وقميصي الأسود. ابتسمت راضية وأنا أناجي نفسي: ما أرقى هذا اللون!

اخترت فستانا من الطراز الفرنسي الكلاسيكي وحذاء متوسط الكعب احتراما لقامتي الفارعة. أسدلت شعري وقد اهتزّ بانحناءة خفيفة على جبهتي. لمعت شفتي ورششت عطري المفضل. ها قد انتهيت! التففت حول نفسي أمام المرآة فانتفخ الفستان مبرزا بياض ساقيّ الناصعتين... وما لبث الفستان أن انسدل بهدوء كستار مسرح عريق.

كنت أشعُّ بهاء وأنوثة، وابتسامة رضا تزين وجهي.. أخذت حقيبتي وعلقتها بيدي اليسرى، بينما جررت باليد الأخرى حقيبة سفر صغيرة أودعتها بذلتي وبعض الأغراض. ألقيت نظرة أخيرة على المرآة وسِرت بتؤدة نحو الباب.

وصلت إلى المكان المتفق عليه، وقد وقفت حافلة كبيرة موشّاة باسم الجامعة ورمزها. كان الأساتذة والقلة القليلة من الطلبة الذين ساعدهم

الحظ على حضور هذه الندوة يتوزعون أفرادا أو جماعات حول الحافلة. واصلت السير نحوهم وقد دغدغتني نشوة اللحظة.

التقتْ عيني بعيني الأستاذ مصطفى، كان واقفا بمعية أستاذ زميل. نظر إليّ نظرة طويلة يخالطها ذهول من نوع ما. شعرت بالتوتر حتى كادت خُطاي تتعثر. فاستدركت بانحناءة من رأسي بما يشي بالتحية. فابتسم ابتسامة عريضة وأحنى رأسه ردا للتحية.

توجهت مباشرة إلى الحافلة، سلمت حقيبتي للمسؤول. واستفسرت عن رقم مقعدي. فلم يكد الرجل يفتح فاه حتى أتاني صوت الأستاذ مصطفى:

- حرصت على أن يكون مقعدك في المقدمة، فلا مكان لك إلا الصدارة.

- ممتنة أستاذي.

أطرقت في خجل، وأنا أناجي نفسي: لقد صار الاهتمام مُعلنا، أم تراه يخص كل الطلبة بهذا التعامل اللبق؟

كان ينظر إلي في تأمل عميق، إلى أن كسر صمته قائلا:

- كنت لأسعد بالجلوس إلى جانبك أثناء الرحلة، لو سمحتِ طبعا. لكني مضطر للسفر بالسيارة. فقد كلفت باستقبال بعض الأساتذة الأجانب في المطار.. أراك في الندوة ياسمين.

- بإذن الله أستاذي.

حمدت الله على أنه سيسافر في سيارته، فما كنت لأتحمل حضوره الذي يملأني توترا وتشنجا لم أدر كيف أصنفه بعد.

وانطلقت الحافلة وانطلق معها خيالي يستشرف الآتي ويحقق الأحلام.

وصلنا إلى الفندق، وأرشدنا المسؤول إلى غرفنا. كان التعب قد نال مني، فلم أعتد قطع مسافات كبيرة بالحافلة.

دخلت غرفتي غير عابئة بما يحيط بي من بهرجة لم أعتد عليها، فقد كان الفندق فخما. شعرت بخدر في قدمي وبارتخاء يجتاح جميع جسدي.

هممت برمي جسدي على السرير، لكني فكرت في أخذ حمام دافئ. ترنّحت واقفة وبدأت أخلع عني ملابسي قطعة قطعة وأتركها تنساب بين أصابعي لتسقط أرضا في هدوء مهيب. وقفت عارية وشعري ينسدل ستارا على ظهري وخطوت نحو الحمام وكلي شوق لملامسة المياه الدافئة. ولشدّ ما سعدت لما وقعت عيناي على المغطس الواسع، فهرعت نحوه في سعادة طفولية وأطلقت العنان للمياه الدافئة ودخلت المغطس في استسلام شغوف. بعد حمّامي المميز، ها أنا ذي مستعدّة للاستلام التام لسلطان النوم العظيم.

دق المنبه، فقفزت من سريري الوثير فزعة، ثم بدأت ممارسةَ طقوسي استعدادا للحدث الكبير. ارتديت بذلتي وتجملت بمكياج خفيف. ثم منحت نفسي ترف ثواني من التأمل أمام المرآة. ها أنا ذي مستعدة. حملت حقيبة يدي السوداء وأوراقي. وتوجهت نحو مقهى الفندق حيث تقرر الاجتماع قصد تناول وجبة الإفطار.

كان أول من وقعت عليه عيناي، تزينه ابتسامته العريضة ويمسك بيده قدحا الأرجح أنه من قهوة. لمحني فهَمّ واقفا وتوجه نحوي في رزانة. كنت ما أزال مسمّرة في مكاني، ربما كانت ملامحي تشي بالخوف أكثر من أية مشاعر أخرى. مدّ يده مصافحا:

- صباح سعيد. هل أنت بخير؟

لم أكد أفتح فمي للإجابة، حتى قال مستنكرا:

- ما بال يديك باردتان راجفتان.

- لا شيء إنه بعض التوتر.

- مممممم إذن تصرين على لعب دور الطفلة المدللة. لا خيار لي إذن إلا أن ألعب دور البابا.

استحثني لأتقدم نحو الطاولة، جلست بأدب وقدمني للأساتذة الذين كانوا يجالسونه. وقد أمعن في مدحي والإشادة بجدي حتى تمنيت لو انشقت الأرض وابتلعتني.

أومأ للنادل بإشارة منه، فلبى نداءه بابتسامة واسعة وكلمات لبقة. نظر إليّ قائلا:

- اسمحي لي أن أكون ديكتاتوريا بعض الشيء وأفرض عليك وجبة إفطار متكاملة غير قابلة للرفض.

اكتفيت بالإطراق وأنا أستشعر وخزات أسهم أعين الجالسين تتفرّسُني باهتمام. كان باسما منطلقا يتصرف بتلقائية تكاد تنقلب تصنعا. حثني على تناول إفطاري لكني لم أستطع تجاوز قدح الحليب بالشوكولا إلى غيره من مأكولات مختلفة زينت صينية مذهبة موشحة بنقوش كأنها حروف هيروغليفية.

توجهنا نحو قاعة الندوات، وقد كانت قاعة فسيحة، تلوح في نهايتها منصة عريضة. النوافذ الواسعة زينت بستائر حمراء قانية تناغمت بشكل كبير مع الزرابي التي تغطي الممشى.

في ركني المنصة علقت شاشتان كبيرتان تعرضان كل ما يدور من أحداث وقد يحدث أن تركز الكاميرا على وجه من وجوه المتحدثين، أو تقوم بجولة شاملة في أرجاء القاعة.

كنت في توتر واضح، إحساس واحد لم يكن يفارقني إنه الندم، لمَ حشرت نفسي في أمور كهذه أنا التي لم أقف قط في المدرج لأقدم عرضا. شعرت بغصّة وبرغبة ملحة بالخروج من القاعة والهرب بدون رجعة. وما لبثت أن شعرت بيد فوق كتفي، استدرت في تطلُّع، ولمحت الأستاذ مصطفى. قال مبتسما:

- هل لي بدقيقة؟

- بكل تأكيد.

دلف بهدوء نحو المخرج فتبعته فورا. بادرني:

- كيف تشعرين؟

قلت بصراحة فاضحة:

- لست بخير.

قهقه محاولا إضفاء بعض المرح:

- يا لك من صريحة.

لكنه ما لبث أن غير من سمته قائلا بنبرة يتنازعها الحنان والجدية:

- اسمعيني ياسمين، إنها فرصتك كي تصنعي لنفسك صورة أمام نفسك أولا قبل أي شخص آخر. أنت طالبة باحثة وقع الاختيار عليك لتمثيل كليتك، ولم يكن ذلك بمحض الصدفة، تم اختيارك لأنك تستحقين ذلك. أنا أرى فيك باحثة ناجحة بل متألقة، وكوني متأكدة أن نظرتي لا تخيب. سآخذ بيدك نحو تحقيق حلمك. ثقي بي.

ارفعي رأسك وحلقي بروحك، لا تنظري إلى الوجوه المتطلعة. اجعلي الأفق هدف ناظريك وحلِّقي.

مد يده نحوي بسماعتين وأردف:

- مداخلتك بعد قليل، كوني مستعدة.

أمسكت السماعتين بذهول وحشرتهما في أذني كانت مقطوعة موسيقية تبعث الحماس والشغف. ابتسمت في وجهه، فألقى تحية بإيماءة من يديه. وخطا نحو القاعة.

الموسيقى، ذلك السحر العجيب.. ذلك الطرب الذي يتماهى مع تلاوين الشجن. قد تجعل الجسد يتحرك ويهتز تحفزا وطربا، وقد تلقيه طريح الغمِّ شجنا.

شعرت أن هذه الألحان انتشلتني من غمامة السواد، ومنحتني دفقة قوة وجرأة، فانطلقت نحو الباب والابتسامة تزين شفتي قائلة:

- أنا مستعدة.

.. نجمة كنت، أتزين بابتسامة تشِعُّ ثقة وبهاء. تردد صدى صوتي في إلقاء مثالي. ونزلت من المنصة تحت تصفيق الرضا والاقتناع.

قَفَلتْ الحافلة عائدة تطوي نفس الطريق التي قطعتها مجيئا. وجلست على مقعدي وقد ملأتني أحاسيس عديدة، ها أنا ذي أكسر قشرة البيضة وأشرئبُّ برأسي إلى عالم أعشقه. اليوم كان بصمة في حياتي

الدراسية والشخصية أيضا. تعرفت على أسماء وازنة، والأفضل من هذا كله أني تلقيت جرعة من الإرادة لأرفع سقف طموحي.

كان الأستاذ مصطفى قد اختفى تماما، ولم أره بعد ابتسامة الرضا التي استقبلني بها وأنا أنزل من المنصة. الأرجح أن لديه التزامات مع زملائه الأساتذة. لم أتوقع أن يهتم بي أو حتى أهتم برؤيته على كل حال؟

لكن اسمه ما لبث أن طفا على شاشة هاتفي، فتحت الخط في توتر:

- مرحبا أستاذي.

- آه أهلا أيتها المتألقة. هكذا إذن تخفين عنا كل هذه الشجاعة والإقدام.

- الفضل كله يعود لك أستاذي.

- هنيئا لي بك. ورحلة سعيدة. أراك قريبا.

- في أمان الله.

لا أدري لم أدخلت مكالمته حبورا كبيرا على قلبي، شعرت بالرضا والاحتواء. فأغمضت جفني ولم أفتحهما إلا على صوت المسؤول وهو يصفق بيده قائلا: الحمد لله على السلامة، لقد وصلنا..

-28-

وصلت غرفتي متعبة فارتميت على سريري دون أن أتمكن من نزع ملابسي. وما إن استيقظت صباحا حتى أخذت حماما، وتناولت إفطارا سريعا وهرعت إلى المحطة، إلى مدينتي، إلى حضن أمي كي أشاركها قصة فتحي العظيم.

حكيت وحكيت، وصَفْت وأطنبت، وأمي بِصمْت صخرة لم تنل منها الأمواج المتلاطمة، تتأملني وقد وضعت ذقنها فوق يديها، قد تجود ببسمة إذا ارتفع منسوب حماسي وكاد يتدفق من الفرح إحساسي. لكنها تبقى وفية لغموضها ونظراتها التي تقرأ ما بين السطور، ما يختلج الصدور.

فتحت ذراعيها ودَعتني. أقبلتُ عليها، عانقتها فاحتضنتني بقوة، مع صمت يحمل كل الكلام.

كأن ثقلا أزيح عن كاهلي وقد تخلصت من شبح الندوة. شعرت بالنشاط وحلّقت حولي عصافير الأمل وملائكة السعادة. لقد حان موعدي مع نفسي، فمقهاي الأثير ينادي، أكاد أتنفس عبق نسيم البحر وهو يداعب وجهي وأنا أستقبل أفق الأحلام المشتهاة.

قصدت وجهتي وقد دسست مذكرات أمي في حقيبتي، لقد صارت صديقتي الوحيدة، تمنحني بوحا صادقا وأعطيها أذنا صاغية. ها أنا أحصل على كأس الشاي المنعنع، في استعداد شغوف للإصغاء لبوح مذكرات أمي المثيرة.

((أحمد، كيف أصف وجودك في حياتي؟ أنور بغيابه يحلّ الظلام؟ أبلسم بانعدامه تفترسني الآلام؟

أدمنتك وتعوّدت حضورك في كل تفاصيل حياتي، فصرتَ جزء من

جسدها، وقلبا يضخُّ الدم في عروقها. حتى صارت حاجتي لك حاجة الرضيع لأمه.

احتضنتني لما أُلقيتُ شريدة الأهل، ولُفظتُ كقطعة طعام فاسدة. فرشت لي الأرض بورود المواساة، وكسوتَ جسدي لباس الحنان والمراعاة. آه كم تملكني الخجل، وأنا أكلفك تحمّل نفقة كراء تلك الشقة الصغيرة التي رأيتها قصرا ممتدا. ولكم سعدت لما وجدت زميلة تشاركني السكن وتدفع نصف ثمن الكراء حتى أخفف عنك. أذكر كيف زففت لك خبر حصولي على وظيفة كمعلمة في روض الأطفال لم تسعني الأرض فرحا وحبورا. أخبرتك عبر الهاتف أني صِرت معلمة، لملائكة صغار. أخبرتك أني سعيدة. كادت ابتسامتك الغراء تلوح لي عبر صوتك الرقراق الذي هنأني وشجّعني، والحبور يكاد ينطُّ من وجهي.

ولا أنسى كيف أمسكت رأسي بين يديك وأخبرتني أنك فخور بي، وأنك دائما إلى جانبي، ومستعد لدفع ثمن الشقة لو رغبت في البقاء وحيدة دون إزعاج من أية دخيلة تكدر عليّ صفوي. كنتَ قد علمتَ طبعي الانطوائي، وعشقِي المرضي للخلوة والوحدة.. فنظرت لك بعيني تقدير وحب لا ينتهي.

كيف تدرك أبسط تفاصيلي، قسمات وجهي إن كنت حزينة حتى وإن ادعيت الفرح. صوتي إن كنت مهمومة حتى وإن افتعلت المرح.

تجشمت عناء دخول مجال غير مجالك لكي تشاركني شغف النقاش والبحث، أحيلك على كتاب فتقرأه بلا تردد. وتأتيني ملوحا كفارس مغوار، حيّ على العلم حيّ على الحياة.

أأجد في الدنيا لك شبيها؟ أيقبل قلبي لك بديلا؟ لا والله يا أحمد أبدا لن أجد لحبك مثيلا.))

أعادني كل هذا الشجن إلى أيام عمر، وأيقظ في قلبي ذكراه المريرة. أتراه قد أوْدعَني مقبرة النسيان، أم أن شبح ذكرايْ مازال يراوده من حين لآخر؟ تبا، لما أنا مصرة على نكءِ جرح قطعت مسافة طويلة في رحلة الشفاء

منه. لكن رطوبة الوحدة تنهش قلبي وتجعل صبره وتجلّده صدأ.
أتراني أسعى وراء الحب؟ هل أبحث عنه وأبادر لإيجاده؟
رجّني صوت الهاتف فاستيقظت من سهومي ورقم الأستاذ مصطفى يشع بإلحاح على الشاشة. عدّلت من جلستي وأخذت نفسا عميقا كأني أستعد للغطس في مياه غائرة. انبعث صوتي يشوبه وهنٌ وتوجس:
- مرحبا أستاذي.
- مرحبا ياسمين، كيف حال أستاذتنا الصغيرة؟
- بخير، عساك في أفضل حال أستاذي العزيز.
- في الحقيقة لقد حللت عليكم ضيفا في مدينتك، فإن كان وقتك يسمح، سأكون سعيدا بدعوتك لاحتساء فنجان قهوة في مقهى من اختيارك.
تلكأت في الجواب فاستدرك قائلا:
- هل أقلقتك؟؟ لا تخافي لن أكلفك بإنجاز عرض آخر.
شعرت بغصة، مزيج من خوف ووجل. وبدأ دماغي يطرح معادلات العلاقات الاجتماعية، أيصح أن يدعوني أستاذي إلى شرب القهوة؟ أهذا شيء عادي في عُرف الناس؟ أم أني أنتمي لزمن غير زمني!
شعرت بالإحراج، وجررت الحروف على مضض:
-لا لا.. مرحبا بك في أي وقت أستاذي.
-إذن أراك على الساعة الخامسة، انتظريني أمام محطة الحافلات وسأمر عليك من هناك.
- سأكون في الموعد.
لملمت أوراقي وحثثت الخطى نحو البيت، وصليل سيوف المعركة الحاصلة داخل رأسي تتحوّل إلى مغص يفتك بأحشائي.
دخلت المنزل في عصبية واضحة، أقحمت الأوراق في مخبئها الآمن وتوجهت رأسا نحو الحمّام.
كعادتي في شجني، أحب مواجهة أنايْ.. تفرست في قسمات وجهي

في تلك المرآة الضخمة التي كانت تعلو المغسلة، وكلما نظرت أكثر زاد حنقي استعارا. أكره الضعف كيفما كان شكله، أنا الحمامة البرية فلا تناسبني إلا الحرية. رششت وجهي بالماء وإذا بيديها تتسللان برفق وتمسكان بي، وكعادتها بصوتها الخفيض كسيمفونية رقيقة خاطبتني:

-صغيرتي، هلاّ منحتني لحظات من وقتك.

لم أعقّب، بل جررت قدمي كأنهما قِرْبتان من طين تتبعان خطو أمي إلى جنة البوح الخاصة بنا، إنها الشرفة التي تعهدتها أمي بعناية فائقة فزيّنتها بأنواع الورود والرياحين. أضاف إليها وجود زوجي الكناري لمسة من بهاء لا ينتهي.

أخذت نفسا عميقا، وأخرجت تنهيدة أفصحت عمّا جاهد اللسان ليخفيه. أطلقت سراح عينيْ فلاح الأفق يزيّنه بهاء الأبيض المتوسط وهو يتربع شامخا مستهزأ هو الذي طالما أغوى النفوس الظمأى بحلم الهرب. ها هو ذا يمتص لهيب قلوب مكلومة...

تنبّهت لنفسي وقد هجرت جليستي، تلك المرأة التي لا تنفك تثير دهشتي حتى في أبسط المواقف، أنّى لها هذا القدر من طول النفس؟

شعرت بعضلات وجهي تنقبض فيما يشبه التكشير، عدّلت من جلستي بحيث أصبحنا وجها لوجه، ألقيت سؤالي كطلقة مسدس، وبدون مقدمات:

- أنّى لك هذه القوة؟

- إنها الحياة، لقد جعلت مني امرأة أخرى. لكن دعينا مني اليوم، وأخبريني ياسمين، ما الخطب؟

نكّست رأسي لوهلة، ثم رفعت نظرة جادة قائلة:

- كلهم كلاب، كلهم... بدون استثناء.

- هوّني عليك، ما الأمر؟

- تذكرين أمي الأستاذ مصطفى الذي كلفني بإلقاء عرض في تلك الندوة..

قاطعتني قائلة:

- كما أذكر أنني حذرتك منه، فما لملمته من حكيك لم يدل على علاقة طبيعية بين أستاذ وطالبته. لقد أولاك اهتماما خاصا وعناية ملفتة. وثقي بي فلذة كبدي لا شيء مجاني في هذه الحياة، فتيقني أنك ستدفعين الثمن بطريقة أو بأخرى.

لا صغيرتي، لست سوداوية ولا متشائمة، لكن لنقل إنني تخرجت من مدرسة الحياة، وقد دفعت الثمن.. هي معادلة، قد تفصح عنها أحيانا، كما قد تكتمها وتغلفها بمسميات شتى.. وما هي في النهاية إلا كلمة واحدة (الثمن).

شعرت بجفاف في فمي الفاغر، ابتلعت ريقي وأنا أجاهد كي أنطق:

- ولكن.. ولكن..

- لا تستغربي حبيبتي، فمن أوجد الليل قد أوجد النهار، وحتّم علينا التعامل مع كلٍ منهما بما يتناسب مع طبيعته.

إني أصبو أن أختصر عليك المسافات، أن أساعدك على إدراك معادلة الحياة.

إن استدعى الأمر ذلك ضعي نظارات، واستشرفي ما هو آت، وتطلعي للأفضل، لأنك تستحقين الأفضل. حياتك رسْمة بين يديك فلوِّنِها باختياراتك..

حضنتني أمي، فداعب أنفي عبق عطرها، وسرى في جسدي خدر واستسلام ما لبث أن انقلب سلاما داخليا لا متناهيا، وكأني قبضت على مفاتيح أسرار الكون.

-29-

خرجت للقاء الأستاذ مصطفى، وأنا أتنفس ثقة وقوة، وكأن شبحها تملَّكني فانزاح كل القلق الذي اعتراني توجسا من هذا اللقاء.

خطوت نحوه كمصارع أسقط غريمه بالضربة القاضية، مددت يدي ومارست ما يمليه عقد اللباقة في مثل هذا المقام. طلب مني أن اصعد إلى السيارة، كنت أجاهد دقات قلبي التي تختلج في صدري فتهزه هزا..

ما إن ولجت السيارة حتى تلاشت قوتي وذابت ثقتي، وانتابني شعور من أحيط به من كل الجهات، شعور السمكة في الحوض، والعصفور في القفص، ابتلعت ريقي وأنا أدْفع عني إحساسا خانقا بالسوء يضحك مني بسخرية يلسعني سؤالها الوحيد: ماذا تفعلين هنا؟

انتشلني صوته من سهومي المؤلم:

- هل تفضلين مكانا معينا؟

- لا.

نطقتها وبي غصة، كمن يتجرع سكرات الندم. تبا لي ما الذي دفعني لقبول دعوة لا تمت إلى الدراسة بصلة.

ربما ابتسم، الأرجح أنه فعل.. لكنني كنت متيبسة كقطعة خشب، فاجئني صوته وهو يفتعل المرح:

- سأقترح عليك مكانا إذن، وأنا شبه متأكد أنه سيعجبك.

- نعم.

سلك طريقا صار بالنسبة لي مقبرة للذكريات، بئرا توردني الضعف والتباكي. لكني الآن في نازلة تعميني عن أشباح الذكريات، أنا في ورطة، سوء فهم أطبق على علاقتي بأستاذي الذي كنت أنشد فيه الشمعة

التي ستنير طريقي نحو البحث العلمي. لكن يبدو أنه نسخة أخرى من مصاصي الدماء.

لكن لِمَ تجرَّأ على تفكير كهذا؟ هل رأى منِّي ما غذّى تفكيره المريض؟ هل تساهلي واستجابتي دون مقاومة وضعتني في خانة الطرائد السهلة؟

وصلنا إلى مقهى «منار البارك» والتي تتميز بمنظر بانورامي ساحر، أخذنا مكاننا والأفكار ما زالت تتصارع داخل رأسي، وصوت كان يردد بلا انقطاع: اتركيه واهربي اهربي اهربي...

جلست على كرسيي وقد قررت أن أعطيه درسا في الآداب والأخلاق إن هو تجرأ على ما يشين. الأرجح أن عضلات وجهي كانت منقبضة، وحواسي مستنفرة مستعدة للانقضاض.

جلس قبالتي والابتسامة لم تفارق وجهه، صرف النادل بعد أن ألقى عليه الطلبات بلا مبالاة. نظر إليّ مباشرة قائلا:

- ياسمين أريد أن أتزوجك.

ألقاها هكذا بدون مقدمات، ألقاها فحسب.. ففغرت فمي كالمغشيّ عليه ولم أنبس ببنت شفة، فأضاف:

- أحبك حبا حقيقيا عرفته وخبرته، أحبك حبا ناضجا لا تردد فيه ولا تراجع. أحبك إلى جانبي وردة أرعاها وأسقيها لتونع وتتفتح.

لا أطلب منك جوابا الآن، لك أن تأخذي وقتك، أن تسألي عن أي شيء خطر لك.

-30-

كيف وصلت إلى المنزل، وكيف أجبت عن تساؤلات أمي القلقة وألقيت الخبر في وجهها عاريا كما هو.. لا أدري، فقط لا أدري.. كأني اختبأت في أعماق كينونتي وتركت هذا الجسد ليواجه عني كل مخاوفي.

أقفلت عليّ غرفتي ورحلت دون أن أفارق مكاني، وحدها الموسيقى استطاعت أن تخترق وحدتي، وتسلي وحشتي. كنت كقارب يتهادى حسب النغمات، يرتجّ تارة ويسكن أخرى.

استخرجت صديقتي الأثيرة.. لا شيء سيقف بيننا الآن، سأهرب مني إلى «المرأة الأخرى» ولن يحول بيننا حائل. استخرجت الأوراق والشغف يشعلني وأنا أتذكر جمال العشق والوله الذي تقاسمته أمي مع أحمد، كل شيء مثالي، يا لحظك يا أسماء. فتحت الورقة:

((بين جدران ضيقة في حمّام بيتي الذي أتقاسمه مع زميلة السكن. ارتعشت يداي وأنا أحمل اختبار الحمل الذي أفصح عن نتيجة إيجابية. أنا حامل.. يا له من شعور غريب لا يماثله شعور. هناك مخلوق يتكون داخلي... نظرت إلى المرآة وبدأت أهمس في نبرة متصاعدة: أنا حامل أنا حامل... لبرهة سرقتني لحظة تشبه نشوة مخدرات قوية...لكن الصفعة كانت قوية أيضا، فأيقظتني من نشوتي. ربّاه كيف سيكون ردّ فعل أحمد؟ صحيح أننا تقاسمنا كثيرا حلم الحصول على طفل نسخة مصغّرة منه! لكن بعد الزواج طبعا.

يا إلهي كيف سأتصرف اتجاه عائلتي...دوامة التهمتني بشراهة، فقررت أن أقوم بالأمر الذي لا محيد عنه، سأخبر أحمد. وأخذت

الهاتف بيدين عاجزتين عن إحكام القبضة ذهولا وخوفا. ركّبت رقمه أنتظر الرد وصوت الرنين يجلد قلبي. أعصابي لا تستحمل مقدمات أو ديباجات. ما إن فتح الخط حتى ألقيتها في وجهه كقنبلة مدوّية:

- أحمد أنا حامل.

- هه أنت تمزحين أليس كذلك؟

- أنا لا أمزح يا أحمد.

- هل تأكدت؟

- نعم، قمت بفحص منزلي.

تغيّر صوته وزمجر بطريقة لم أعهدها به من قبل:

- هذا غير كاف، عليك أن تذهبي لطبيب مختص.

- لمَ تصرخ بهذه الطريقة يا أحمد! ثمّ أنا م توترة بل مرتعبة. علينا أن نلتقي للتحدث في الموضوع.

لا يوجد ما نتحدث عنه في هذا الموضوع، قومي بفحص الدم في المختبر لتتأكدي. أعرف طبيبا يقوم بعمليات إجهاض في عيادته. تخدير بسيط وينتهي كل شيء في دقائق.

- إجهاض.. إجهاض لا يا أحمد لا أرجوك.

- تبا أنت لا تفهمين شيئا، عليك أن تتخلصي من هذا الجنين.

-أحمد، ربما يكون هذا الجنين مفتاحا لارتباطنا الرسمي. إلى متى سنُأجل موضوع الزواج.

-أنا لا أستطيع أن أعترف بهذا الجنين أنا لا أستطيع أن أفعل شيئا.. أنا متزوج.

استيقظت ورأسي ينفجر ألما، أدركت أنه قد أغشي عليّ، والأسوأ أني أدركت متأخرة أنني ضحية وهمٍ كبير، وأني استجَرت من الرمضاء بالنار.

أخذت الهاتف فلم أجد أية اتصالات من أحمد. حاولت الاتصال فوجدت الهاتف مقفلا، ففهمت أنه قضي علي..))

نسيت مصطفى وعرض الزواج، بل نسيت موطئ قدمي وأنا أصرخ:
- نسرين ابنة أحمد! أختي نسرين ابنة أحمد!
هرعت أمي إلى الباب تقرعها بشدة، وتنادي:
- ياسمين، افتحي يا ابنتي، افتحي أرجوك من أجل أمك.
صرخت والحشرجة تخنق أنفاسي:
- أمي؟ عن أية أم تتحدثين؟ أنت حقا امرأة أخرى.

-31-

شعرت أني عالقة في منطقة برزخية بين الحياة والموت، أحسست بالضباب يلفني لفا، شعرت إني أفقد الإدراك أو الأرجح أني أرغب في أن أفقد الإدراك، لأني لا أريد أن أعرف أني عشت مخدوعة كل هذه السنين. عشت أتلمس ثدي الحنان في امرأة سقتني كأس الخديعة بإتقان.

نسرين ليست أختي الشقيقة! إنها ابنة أحمد، ولكن كيف يكون ذلك وهي تحمل نفس النسب الذي أحمله؟

طرقاتها على الباب تؤجج المارد القابع داخل رأسي. توجهت كإنسان آلي نحو الباب الذي يهتز طرقا، فتحته دون تفكير، فانقضت علي وطرحتني أرضا وهجمت عليّ بعناق لم تترك لي معه فرصة لأي رد فعل.

عانقتني وهي تبكي بجنون، بكت وبكت كما لم تفعل من قبل، وكلمة واحدة لا تفارقها:

- اسمعيني اسمعيني...

أين أنا؟ أما زلت هنا أرتج مع ارتجاج هذا الجسد بين يديها؟ أم أنني روح تمثلت في ملاك ذي دائرة من نور فوق رأسه، وأجنحة بيضاء، أراقب ما يحدث من السماء؟

خارت قواها فتركتني من يدها وأسندت ظهرها إلى الحائط، ورمت ببصرها بعيدا، وخرج صوتها مهموسا متحشرجا:

- ولا حتى أنت كنت ستعرفين الوقت المناسب لقول الحقيقة. ثقلٌ خارت له قواي مرارا وأنا أحاول أن أكون لكما الأم التي تحتاجانها. عناء اخترت أن أتكبده وحدي بعدما صليت نار القرب. ودفعت ثمن الحب.

حزمت مشاعري وقررت أن أبدأ رحلة صنع الذات، أن أجبر كسري

وأشيح بقلبي عن أي دفء مُشتهى.

أحمد ذبحني من القفا، منّاني في جنة ما هي إلا جحيم مستعر يخفي وراءه الزوجة الرسمية التي تذوقت مرارة الخيانة.. وما يدعو إلى السخرية في الأمر أن لا واحدة منا تدري بوجود الأخرى.

كنتُ له حانة يرتادها لينسى، وينساها عندما يتركها. وأنا الحمقاء التي عشقته بوَلَه وغرْت عليه من كتف الغريب إذا كادت تلامس كتفه عرضا.

لقد اقتات على ضعفي، وناسبه نبذ أهلي، فتمكن مني تمكن الأفعى من فأر تائه، تحتضنه رويدا رويدا قبل أن تعصره وتلتهمه لقمة سهلة مستسلمة.

تلك الليلة، حملت خيبتي أجر قدمين مثقلين وَهَناً، وجسدا تلقّى ما يكفي من رصاص الغدر والخيانة. رفض لقائي، وما كان له إلا أن يُذعن بعد تهديد مجنون.

قابلني في ذلك الشارع بوجه كضيم وجسد يتلمس الفكاك ليفر هاربا من لعنتي. هممت بإمساك يده فسحبها كأن مسا من الكهرباء صعقه. تمتم وهو يصك أسنانه:

- لا تلمسيني

صُعقت مذهولة ومادت بي الأرض، فتراجعت خطوتين تمايلت فيهما كسكران عتيد. وخرج صوتي مبحوحا مرتعدا، وقلت بتوسل:

- لا يا أحمد لا تفعل بي هذا.

وبينما كنت أستجدي عناقا يُفرج هذا الكابوس الذي أحاط بي، ويكذّب الصورة الجديدة التي برز بها أحمد، إذا بخدّي يتلقى صفعة حارة طرحتني أرضا. فوضعت يدي فوق خدي الذي غمره نبض وحرارة لافحة. ولم أقوَ على نطق شيء غير:

- لا لا هذا ليس أنت، ليس أنت..

طالعني وجهه وقد تضخم، وزاد جسده طولا وأنا أنظر إليه مفترشة

الأرض الباردة. بدا تماما كالأشرار الذين يظهرون في الرسوم المتحركة في لحظة قضائهم على خصمهم الطيب. نظر إليّ باشمئزاز قائلا:

- هذا هو أنا، ابتعدي عنّي وجِدي حلولا لمشاكلك التي لا تنتهي.

تركني أعانق الأرض التي احتضنت الشلل الذي أصابني. عرفت أن الرجل كان يعيش حياته مع زوجته المصون وما أنا إلا محظيته التي تسمع وتطيع. أرضع تدي التسويف وأرتشف لبنه اللذيذ الذي حلّاه بغزل الكلم.

هل أنتحر؟ هل ألقي نفسي أمام سيارة أو قطار؟ وأنزل الستار على إنسانة عُجنت من خيبة وألم؟ لقد كان باحثا متفوقا في دراسة نفسيتي، يعرف هواجسي وخوفي من الفضيحة، يعرف سلطة أهلي وتعصبهم في مثل هذه الأمور الأخلاقية التي تمس العرض والشرف.. لطمني بكل التهديدات الممكنة، ورحل وهو يحفر خندقا غائرا من الألم في قلبي..

بكيت وبكيت، ونُحتُ بهستيرية كادت تُخرج عينيّ من محجريهما... قبلت الأرض التي كانت تعانقني، ورفعت رأسي وقد ارتسمت ابتسامة على وجهٍ رسم النحيبُ تضاريس عجيبة عليه. استندت إلى الحائط شعثاء تعلو وجهي نظرة قاتل مهووس، تركزت عيناي على الأفق.. على العدم، أنظر فلا أرى ما حولي. لم أرَ إلا ما ورائي.. لم أرَ إلا غبائي.

ضحكت بقهقهة أفزعت القطط، بدأت أتلمس وجهي وجسدي وبطني. ضربت بكلتا يدي على الأرض قائلة: «اشهدي يا أرضاً شربت دموعي، اشهدي يا مدينة احتضنت حبا خادعا بين ضلوعي. تلك التي عرفتِها قبرتُها ها هنا بشهادتك وأنا اليوم امرأة أخرى».

-32-

لم أملك نفسي وقد سالت دموعٌ أحرقتني وأوقدت قلبي لهباً. هَول الصدمة أشعرني بالغربة، بأنني لا أعرف حتى أقرب الناس إليّ، أمي. لكن خاطراً صفعني وفرض عليّ أن أتأنّ، أن أعيد النظر! ألم تسْعَ هذه المرأة إلى حُضن محبٍ مخلص يشعرها بالأمان؟ الأمان... الأمان الذي كان مطية نهش لحمها بقسوة من طرف الذئب المعتد الظالم، الذي يسيّج نفسه بما يقدمه له العرف من أفضلية. تبا للقانون الذي يكسر المرأة بأعمق نقاط ضعفها التي فطرها الله عليها، وهي العاطفة.. كلمة ترادف الضعف، وتجعل الأنثى رمز الفساد، وحبل الشيطان وناقصة عقل، ويُلزمها الطاعة بل الخنوع، وإلاّ كان مصيرها العقاب واللعنات.

كان يمكن أن أكون محلّها لو اكتملت تلك الليلة مع عمر، لم أكن ليلتها لأمتنع عنه وأنا في سكرة الحب. ولم يكن ليتردد في طردي وخذلاني ولعابه يسيل على مستقبل مشرق في لندن.. وها أنا ذي أرى الحقيقة من خلال الألم... من خلال ألمي الذي يشبه ألمها، وألم كل امرأة ذاقت علقم الغدر. وهنا راودتني قولة الفيلسوف أفلاطون «لن يفهم ألمك شخص لم يعرف الألم» لذا فأنا أفهم ألمها، ولا أملك إلا أن أنحني لامرأة لملمت شتاتها، استجمعت قوّتها وانبعثت من رمادها...لقد استطاعت أن تحتضنني وأختي نسرين، وتقف سدا منيعا أمام نوائب الزمن، أن تصمد في معركة الحياة. كانت لنا الأب والأم والأهل أيضا... أخذت بيدينا لنونِع شابتين أخذت كلٌ منا السبيل الذي اختارته عن اقتناع.

أمسكت يديها وقبلتهما: «سامحيني أمي، اعذري ضعفي عن استيعاب هذا الزخم. تعالي معي إلى شرفتنا ولك الكلمة».

رشَشت وجهي بزخات ماء بارد أطفأ ما اجتاحني من زوبعةٍ حرّكت كل خلية في جسدي الذي اعتاد السكينة والأمان. كذلك فعلت أمي لتطفئ حرائق جاهدت كثيرا في إخفائها لزمن طويل.

استقبلتنا الشرفة بهواء عليل مَنحني نفسا أشبه بشهيق ما بعد الاختناق.. أغمضت عينيّ وحاولت التنفس بهدوء وانتظام. التفت إلى أمي التي صارت تبدو أفضل حالا وقد استعادت هيئتها المعتادة، ها هي ذي أسماء القوية. نظرتْ إليّ بعمق وانساب صوتها رقيقا متهدلا:

«لقد حُرمت منك وحرمتِ مني، ودفعت الثمن عذابا سرمديا يغشى كل دقيقة من بُعدك. فارقتك مرغمة وأنا أمنّي نفسي بغد أفضل، بغدٍ نستقل فيه بذاتنا ولا نضطر لتحمل نظرات كرهٍ أو سياطِ تأنيب. من أجل ذلك تمسكت بدراستي ووضعت هدف الحصول على وظيفة ضمن أولوياتي، بل كان هاجسي الوحيد. الاستقلال المادي كان يعني لي العزة، وعدم الاضطرار لاستجداء أحد، حتى لو كان أباك يوسف.

تأكدت من قرار أحمد بالتخلي عني، وها أنا ذي أحمل بين أحشائي جنينا لم أحضّر من أجل استقباله سوى ركام من الخيبات، جنينا تلقى أبوه خبر وجوده بتنكر مذل.

لم أملك حتى المال الكافي للتخلص من الجنين، لا أنفي أن الفكرة كانت تلوح كقارب نجاة، أن أتخلص من الجنين وأمضي قُدما كأن شيئا لم يكن. لكن الخيال شيء والواقع شيء آخر.

حاولت بطرق تقليدية كنت قد سمعت عنها عرضا، لكن نسرين كانت متشبثة باستماتة. حاصرتني الوحدة والحاجة، وجثم على صدري الوقت الذي كان يهددني بعدٍّ تنازلي يعلو صوته مع دقات الساعة.

ترددت في اللجوء إلى خالد، لا خوفا من الشماتة، ولكن هروبا من خزي الاعتراف بخطئي وعمَاي. وما كان إلا أن وجدت نفسي أجر الخطى نحو مسكنه وأنا أحدث نفسي بالبكاء بين يده، حتى لو لامني وعاتبني بقسوة.

وصلت منزله ومازالت نواقيس التردد تصك أذني. أغلقت عيني وضغطت على الجرس وأنا أستعد للقاء لوم وألم وحسرة. لكنني لم أجد مجيبا، كان المنزل ساكنا كالصخر، وأنا مكلومة أتنفس الخيبة والقهر. تراجعت أهمّ بالعودة إلى جحيمي الخاص، فإذا بي ألمح الطالب الذي يقاسم خالد السكن يقترب بسرعة من المنزل. سعدت لرؤيته واتجهت نحوه وقبل أن أفتح فمي بكلمة جرّني في عصبية وهو يقول:

- خالد خالد.. إنه في المستشفى.

- في المستشفى؟ ما الذي حصل؟

- انتظري هنا سأحضر بعض المال وآتي فورا.

تسارعت دقات قلبي، بدأت أستشعر هبوب رياح المصائب، وأنا أترقب عودة الشاب في توتر. وما إن خرج حتى سحبني من يدي وبدأ يركض. جاريته في الركض وأنفاسي تتقطع. استوقف سيارة أجرة بطريقة جنونية غير عابئ باحتجاج أو سب. أخذ المقعد الأمامي وقفزتُ في الخلف بكل ما استطعت من سرعة. انطلقت السيارة والشاب يستحث السائق. سألته بوجل:

- أرجوك أخي أخبرني ما الذي حصل لخالد؟

لم يجبني، فكررت السؤال، فتجاهلني ممسكا رأسه بكلتا يديه. أفزعني كل ما يجري فبدأت أجذبه بعنف فيما يُشبه الصراخ:

- أين خالد؟ ما الذي حصل له؟؟

عبثا حاولت، لكنه لم يجب. وصلنا المستشفى فدخلنا ركضا، كان الشاب يقطع الأروقة وأنا أتبعه لاهثة فزعة. فجأة توقف، وبدأ يتفحص إحدى الأبواب، يطل من زجاجها تارة، ويقرعها تارة أخرى.

بعد برهة فتحت الباب فخرجت امرأة صارمة الملامح، كأن تقاسيم وجهها ثابتة لا تتحرك. نظرت إلى الشاب قائلة:

- أنت الشخص الذي رافقه؟

- نعم، هل هو بخير.

- سيدي يؤسفني أن أعلمك أن السيد خالد فكري قد انتقل إلى رحمة الله.

كانت آخر جملة سمعتها من كلامها الذي صار مجرد هدير غير مفهوم مع صراخي الجنوني. صرخت باسمه ملئ طاقتي، كأن صوتي سيعيده للحياة. ناديته كأني أنتظر منه أن يجيب. وقفت وسقطت أرغيت وأزبدت. إلى أن خارت قواي، لأجد نفسي أمام الحقيقة العارية لقد فقدته. فقدت خالد الملجأ الدافئ، والإنسان المميز الذي لا يعوض.

كيف أنفقت أيامي على ذلك الحقير وتشاغلت عن عيادتك وتفقد أحوالك. سامحني أيها العظيم، سامحني أيها المميز. يا روحا سأحملها بين أضلعي ما حييت.

قام الشاب بالاتصال بأهل خالد الذين حضروا من مدينته لاستلام الجثمان، وسافرت برفقتهم لحضور مراسيم الجنازة.

كان خالد أول شخص يسرقه مني الموت، أول فقد أبدي، أول لقاء مع المقصلة، وها أنا ذي وحيدة، مغتربة، أجمع أشلاء جسدٍ عبث به الحب، بل الحمق والغباء، تبا لي.

تابعت عملي في روض الأطفال، ولم أترك قط خيط الدراسة الذي يربطني بحُلمي في ولوج عالم التعليم. كابدت شقاء العمل وعناء الدراسة، واستجمعت قواي واجتزت مباراة التعليم ووُفقت بها «

رفعت رأسها إلى السماء وأطلقت سراح تنهيدة أفشت حرّا يقيض داخل قلبها المكلوم، قالت: لقد كانت الأيام التي اجتزتها بين التحضير للمباراة ملحمة في حد ذاتها» ثم استطردت بحركة من يدها قائلة: «دعينا منها الآن ولنبق في الأدهى والأمر، إنها بطني التي كانت تسابق الزمن، وجدت نفسي كمن فتح عينيه ليجد نفسه في صحراء قاحلة ممتدة، لا فرق فيها إن تقدمت إلى الأمام أو تقهقرت إلى الخلف، الكل سواء مادام الموت يحيط بك من كل الجهات. حينها لاح لي سراب بدا بعيدا ومهينا أيضا، لكن لم يكن لي سبيل سواه، إنه يوسف.

-33-

زرت مكان عمل يوسف الذي لم يتغير على امتداد هذه السنين، تواريت عن أعين زملائه وتربصت بلحظة خروجه، وظهرت أمامه كأني خرجت من العدم.

كنت أشعر بالذل والمهانة وألعن الأيام التي رمتني تحت أقدام رجل أذاقني العذاب.

افتعل عدم الاهتمام قائلا:

- أهلا أهلا بالعالمة أسماء، ما أخبار الجامعة والعلم المتدفق الذي تتمتعون به.

- يوسف هلاّ ذهبنا إلى مكان هادئ لنتكلم.

قهقه بصخب: مكان هادئ؟ أعوذ بالله هل تريدين التغرير بي.

تابع ضحكه الساخر، ثم ألقى عليّ نظرة حادة:

- ما الذي تريدين أن نتكلم بشأنه، ألا أمنحك حرية زيارة ابنتك كل أسبوع واصطحابها أنى شئت، بينما أتحمل نفقاتها أيتها الأميرة؟

- يوسف جئت اليوم لأني في حاجة إليك.

- جميل جميل، جميل جدا.

- وما حاجة العالمة أسماء للأميّ يوسف؟

- كفى تهكما يوسف، أنا أم ابنتك وأنت من أساء إليّ... يا الله دعنا من هذه السخافات.

قاطعني قائلا:

- أفهم أنك جئت تطلبين القرب.

صككت أسناني حنقا، ورسمت ملامح الاستعطاف على وجهي

قائلة:
- أنا في ورطة وأحتاج أن تساعدني.
- ممم هي ورطة إذن، هات لنرَ.
- أنا حامل وأحتاج أن أنسب الجنين لك.
صمت طويلا كأنه لن ينطق بعدها أبدا، ثم استند إلى الجدار وأشعل سيجارة وقال:
- هات الخطة.
- خطة؟
- أقصد البرنامج ماذا تنوين؟
شعرت بأني أخيرا أتنفس بعد اختناق طويل. فعلى الأقل لم يطردني شر طردة. وها هو مستعد للنقاش. قلت:
- نعقد القران، زواج شكلي بيني وبينك، يكفيني شرّ نسب الجنين...
قاطعني قائلا:
- يا سلام يا سلام، وأنا يا سيدتي أ الحمار أم البردعة؟
- ماذا تقصد يوسف.
- أقصد ماذا أستفيد من هذا المهرجان؟ لم أنسب خنزيرا صغيرا جاء نتيجة ممارسة قذرة مع الخنزير الكبير.
- يوسف لسنا هنا لنحاكم بعضنا، وإلا فأنت أولى بأبشع الصفات.
قهقه بصوت مقزز:
- أنا رجل أيتها العالمة.
- نعم أنت كذلك.
قلتها في خنوع وقد سقطت دموع الذل من عيني، رفعت رأسي بهدوء وقلت:
- ما هي مطالبك؟
- جيد جيد الآن بدأت تفهمين أصول الحوار سيدتي العالمة أسماء. سنكتب التزاما صغيرا جميلا بأنك مدينة لي بخمسة ملايين درهم،

وتلتزمين بردها بعد سنة من الآن.

- خمس ملايين؟ من أين..

قاطعني بوضع إصبعه فوق شفتي، وتابع قائلا:

- وإلى أن يحين موعد تسليم الدين، تلتزمين بإعطائي ألف درهم كل شهر، وهذا طبعا لن يكتب في عقدنا الجميل بل هو اتفاقنا رجلا لرجل.

وانفجر ضاحكا بجنون، بينما كانت خناجر الألم تمزق قلبي وألعن حبي لأحمد الذي رماني فريسة بين أنياب الزمن.

- موافقة.

- لكنني لم أنته بعد.

نظرت إليه متفاجئة، وعقلي يدور مثل رحى منفلتة. فانحنى وهمس في أذني:

- وربما نستعيد الأيام الخوالي من وقت لآخر.

تقهقرت خطوتين إلى الخلف، وبصقت على الأرض قائلة:

- يا لك من حقير.

هممت بالرحيل، فأمسك يدي بقوة قائلا:

- تريدين الرحيل إذن؟ ستعودين جميلتي، ستعودين...

جررت قدمي، وابتعدت ببطء لا شيء أشهى إلى قلبي لحظتها إلا تُخسف الأرض بي أو تخطفني الطير، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث. وتابعت خطواتي الثقيلة، لكني توقفت فجأة واستدرت وعلى محياي نظرة ثور جريح لم يبق له إلا خيار الاستسلام للموت. ناديته وقد لاح من بعيد، فتوقف كأنه كان يتوقع عودتي، استقبلني بابتسامة النصر:

- عرفت أنك ستعودين سيدتي العالمة أسماء.

-34-

الآن عرفت، عرفت يوسف والدي وكيف اقتحم قلاع أمي وهي زهرة بريئة باسم حب أحال حياتها جحيما. وباسم الحب أيضا فتحت قلبها لذئب في ثوب شاة وديعة هو أحمد الذي أتقن فن الاستغلال وعرف بالضبط من أين تؤكل الكتف.

هو نفس الحب الذي أرداني قتيلة طلقات غدر عمر الذي شق طريقه مع حبيبته الأجنبية بينما كان يمثل عليّ دور العاشق الولهان. وتذكّرت سلمى في الأجنحة المتكسرة لجبران خليل جبران، وبدأ لساني يهمس تضرعها بكلماتها وهي تقول: ماذا فعلت المرأة يا رب فاستحقّت غضبك؟ ماذا أتت من الذنوب ليتبعها سخطك إلى آخر الدهور؟ هل اقترفت جرما لا نهاية لفظاعته ليكون عقابك لها بغير نهاية؟

أنت قوي يا رب وهي ضعيفة، فلماذا تبيدها بالأوجاع؟ أنت عظيم وهي تدبُّ حول عرشك، فلماذا تسحقها بقدميك؟ أنت عاصفة شديدة وهي كالغبار أمام وجهك، فلماذا تذريها على الثلوج؟ أنت جبّار وهي بائسة، فلماذا تحاربها؟ أنت بصير عليم، وهي تائهة عمياء، فلماذا تهلكها؟ أنت توجدها بالمحبّة، فكيف بالمحبّة تفنيها؟ بيمينك ترفعها إليك، وبشمالك تدفعها للهاوية! أنت تسقيها الحياة بكأس الموت، والموت بكأس الحياة. أنت تطهّرها بدموعها، وبدموعها تذيبها. أنت أنت يا رب قد فتحت عيني بالمحبة، وبالمحبة أعميتني، أنت قبّلتني بشفتيك، وبيدك القوية صفعتني، أنت زرعت في قلبي وردة بيضاء، وحول هذه الوردة أنبتّ الأشواك والحسك. أنت أوثقتك حاضري بروح فتى أحبه، وبجسد رجل لا أعرفه قيّدت أيامي فساعدني لأكون قوية في

هذا الصراع المميت.»

لكني اليوم مستعدة أتمّ الاستعداد لأحطّم القيد، لأنفض عني دور الضحية، مستعدة لأكون المرأة التي أختارها، لأكون المرأة الأخرى.

(رنين الهاتف)

- مرحبا ياسمين.

- مرحبا أستاذ مصطفى، بكل احترام أجيبك: لست موافقة على الزواج، أنا اليوم مثلها تماما.. مثل أسماء.. أنا اليوم امرأة أخرى.

منشورات
"الراصد الوطني للنشر والقراءة"

1- ماذا تحكي أيها البحر...؟، فاطمة الزهراء المرابط، (قصص)، 2014.
2- ضمير مؤنث، حميد الراتي، (قصص)، 2014.
3- صدى النسيان، خليل الوافي، (شعر)، 2014.
4- بصمات(1)، (كتاب جماعي)، 2014.
5- سنوات الرمل، حماد البدوي (مذكرات)، 2014.
6- مبدعون في ضيافة المقهى، فاطمة الزهراء المرابط، (حوارات)، بدعم من وزارة الثقافة والاتصال، 2015.
7- قطاف: مقاربات نقدية في السرد المغربي، (كتاب جماعي)، بدعم من وزارة الثقافة والاتصال، 2015.
8- بصمات(2)، (كتاب جماعي)، 2015.
9- خلف الباب أمنية، خديجة موادي، (قصص)، 2015.
10- لمسات على خد القمر، ادريس حنبالي، (قصص)، 2015.
11- انكسار السراب، زكية الحداد، (قصص)، 2015.
12- مقدمات في نقد الثقافة الشعبية، محمد شداد الحراق، (دراسة)، 2016.
13- الفرجة المغربية، عبيد لبروزيين، (دراسة)، 2016.
14- هل يكذب الأموات..؟، سميرة بورزيق، (قصص)، 2016.
15- أمواج خارج البحر، ابراهيم السكوري، (قصص)، 2016.
16- تعاويذ على مقام الخريف، خديجة گراگي، (شذرات)، 2016.
17- السرد وتمثيل الذاكرة التاريخية: قراءات في رواية "الناجون" للزهرة رميج، (كتاب جماعي)، بدعم من وزارة الثقافة والاتصال، 2016.
18- أفلاطون يصل متأخرا، سعيد موزون، (قصص)، بدعم من وزارة الثقافة والاتصال، 2016.
19- بصمات(3)، (كتاب جماعي)، بدعم من وزارة الثقافة والاتصال، 2016.

20- رحيل بسيط، حجيب الجربي، (شعر)، بدعم من وزارة الثقافة والاتصال، 2016.
21- معزوفة لرقصة حمراء، عبد القادر الدحمني، (رواية)، بدعم من وزارة الثقافة والاتصال، 2016.
22- إدوارد سعيد. الانتفاضة الثقافية، إيف كلفارون، ترجمة: محمد الجرطي، 2016.
23- آليات الهزل وخصائصه في شعر المقلين في العصر العباسي، عبد الكريم الفزني، (دراسة)، بدعم من وزارة الثقافة والاتصال، 2016.
24- رصيف الذاكرة، نجاة السرار، (قصص)، بدعم من وزارة الثقافة والاتصال، 2016.
25- نحن مختلفون، رشيد شباري، (نصوص مسرحية للأطفال)، بدعم من وزارة الثقافة والاتصال، 2016.
26- صهيل جسد، عبد الجليل ولد حموية، (رواية)، 2017.
27- Sables Fuyants، محمد بنفارس، (شعر)، 2017.
28- مدينة الظلال، منيار أحمد العيسى، (قصص)، بدعم من وزارة الثقافة والاتصال، 2017.
29- ثلاثي الظل، عادل التكفاوي، (قصص)، بدعم من وزارة الثقافة والاتصال، 2017.
30- عودة مكيافيلي، الصديق اروهان، (قصص)، بدعم من وزارة الثقافة والاتصال، 2017.
31- عندما تغيب في القمر السماء، محمد الجيدي، (شعر)، 2018.
32- مرآة الغريبة، محمد فاهي، (رواية)، 2018.
33- جماليات الخطاب السردي قراءات في قصص "ألق المدافن" للقاص رشيد شباري، تقديم وتنسيق: فاطمة الزهراء المرابط، (كتاب جماعي)، 2018.
34- اللعب مع الزمن، مصطفى ملح، (قصص)، بدعم من وزارة الثقافة والاتصال، 2018.
35- ويبكي لغروبها الصباح، زهير اسليماني، (قصص)، بدعم من وزارة الثقافة والاتصال، 2018.
36- أنشوطة المطر، عماد شوقي، (قصص)، بدعم من وزارة الثقافة والاتصال، 2018.
37- سوانح امرأة عادية، نعمة ابن حلام، (شعر)، 2019.

نشر هذا الكتاب
بدعم من



وزارة الثقافة والاتصال